تزكية النفوس

طبعة منقحة مصححة فيها زيادات
مقتصرة على صحيح الأخبار

جمع وترتيب وتحقيق
أحمد فريد

الناشر
دار العقيدة للتراث

٢٠٠٠ م - ١٤٢٠ هـ

رقم الإيداع : ٩٨/٥٨٦١
الترقيم الدولى : 977-5458-09-4

الناشر

دار العقيدة

الإسكندرية : ١٠١ ش الفتح - باكوس ت : ٥١٤١٣٢١
القاهرة : ٥ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعُوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

أما بعد :

فمن أكثر من خمسة عشر عاماً ، ومع تباشير الصحوة الإسلامية وفقني الله عز و جل لجمع كتاب مختصر في الرقائق وأسميته « دقائق الأخبار في رقائق الأخيار » .

وطبع الكتاب أكثر من طبعة غير محققة ثم استأذنني الأخ شرف حجازي في طبع الكتاب بعد أن حققه بعض الإخوة الأفاضل فأذنت له ومضى على ذلك مُدَّةٌ ، ثم نزل الكتاب باسم « تزكية النفوس » وبتحقيق الأخ : « ماجد أبو الليل » وانتشر الكتاب بفضل الله عز وجل وفوجئت بطبعات بيروتيه باسم دار القلم ليس لها خطام ولا زمام ، فلا أدري هل كان هذا باتفاق مع المحقق أو على الطريقة البيروتية في الطباعة وعلى كل حال ليس ذلك بإذن

المؤلف ، ولما كان الكتاب من أول ما كتبته مع قلة المراجع وقلة العلم والخبرة اشتمل الكتاب على بعض الأحاديث الضعيفة فأردت أن أبرىء ساحتي من هذه الأحاديث وأن أتعامل معها كما تعاملت مع البحر الرائق و مختصر بغية الإنسان وغيرهما من حذف الضعيف وإعادة تحقيق الكتاب وتجهيزه لطبعة اقتصادية ، وتسهيل الحصول عليه لإخواننا من المبتدئين في طلب العلم .

وزدت في هذه الطبعة بعض الزيادات واستبدلت بعض الأحاديث الضعيفة بأحاديث صحيحة وربما استبدلت بعض الصحيح الذي ليس في الصحيحين بما يغني عنه من أحاديث الصحيحين ولا شك أن مؤلف الكتاب أولى بتحقيقه والناظر في الجهد المبذول سوف يجد بإذن الله تعالى فائدة جديدة ، وكم من كتاب حققه أكثر من محقق واستفاد الناس من مجهود كل محقق ، وقد حافظت على اسم الكتاب دفعاً للتدليس وحتى لا يشتريه أحد وهو يملكه ظناً منه أنه مصنف جديد .

أما عن موضوع الكتاب فهو كتاب مختصر عن تزكية النفوس ، ويقصد بتزكية النفوس تطهيرها وتطييبها ، حتى تستجيب لربها وتفلح في دنياها وآخرتها كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس : ٩ - ١٠] .

وهي دعوة النبي ﷺ : « اللهم آتِ نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها »[١] .

فيبدأ الكتاب بمعرفة ما يقبل به العمل من شرطي الإخلاص والمتابعة ثم فضل العلم والعلماء ، ثم بيان أحوال القلوب وأقسامها وعلامات مرضها وسقمها ، وأسباب صحتها وأسباب سقمها فإن الناس لا يحتاجون إلى الوصية

---

(١) رواه مسلم (٤١/١٧) الذكر بزيادة في أوله وآخره ، وأحمد (٣٧١/٤) و(٢٠٩/٦) .

بأجسادهم لحفظ حياتها ودفع هلاكها ، فكلهم يأكل ما يفيده ويترك ما يتحقق مضرته ، ولكنهم يتناولون السموم الضارة المهلكة لقلوبهم ، ويزهدون في الأغذية النافعة لها ، حتى صارت الأجسام لها قبورٌ إلا من رحم ربك وقليل ما هم .

ثم ذكرت باباً في محاسبة النفس ، وباباً في الزهد وأضرار حب الدنيا ، وللأسف قسم هذا الموضوع في جميع الطبعات السابقة مع أنه موضوع واحد فالتأم شمله بفضل الله عزّ وجلّ في هذه الطبعة .

ثم ذكرت عدة عبادات من أحب العبادات إلى الله عزّ وجلّ لا تصلح القلوب إلا بها كالصبر والشكر والرجاء والخوف والمحبة والتوكل والرضا ، وختمت هذه الجولة الطيبة في الرقائق وما تزكو به النفس بالتوبة التي هي وظيفة العمر والسبب الموصل إلى محبة الله عزّ وجلّ : ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِيْنَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٢٢] فنسأل الله أن يوفقنا لتوبة نصوح وأن يتقبل منا صالح الأعمال وأن يتجاوز عما فيها من نقص وزلل ، وأن يجعل خير أعمالنا خواتمها وخير أيامنا يوم نلقاه ، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه والحمد لله رب العالمين .

المؤلف

١ - الإخلاص والمتابعة
شرطان لقبول العمل

لا يقبل الله عزّ وجلّ عملاً من الأعمال حتى يتوفر فيه شرطان فالأول : هو الإخلاص وهو شرط الباطن ، والثاني : هو متابعة سنة الرسول ﷺ وهو شرط الظاهر ، ودل على هذا المعنى كتاب الله المنزل وسنة النبي المرسل ﷺ : قال الله تعالى : ﴿ **الَّذي خلَقَ المَوتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك : ٢] .

قال الفضيل بن عياض : هو أخلصه وأصوبه فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، وقال تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة رَبِّهِ أحداً** ﴾ [الكهف : ١١٠] فالعمل الصالح هو الموافق للسنة وعدم الشرك هو الإخلاص وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِيْنَاً ممن أسلم وَجْهَهُ لله وهو محسنٌ** ﴾ [النساء : ١٢٥] .

فإسلام الوجه هو الإخلاص ، والإحسان هو متابعة سنة النبي ﷺ .

❋ ❋ ❋

أ – الإخلاص

الإخلاص : هو تجريد قصد التقرب إلى الله – عزّ وجلّ – عن جميع الشوائب .

وقيل : هو إفراد الله عز وجل بالقصد في الطاعات .

وقيل : هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .

والإخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله ﷺ، وقد أمرنا الله عز وجل به فقال تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾ [البينة : ٥] .

وعن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجرَ والذِّكْر ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا شيء له » ، فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ : « لا شيء له » ، ثم قال : « إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغِيَ به وجهه »(١).

وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع : « نَضَّرَ الله امرءا سمع مقالتي فوعاها ؛ فربّ حامل فقه ليس بفقيه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مؤمن : إخلاص العمل لله ،

---

(١) رواه النسائي (٦/٢٥) الجهاد وحسنه العراقي في تخريج الإحياء (٤/٢٨) وقال المنذري في الترغيب (١/٢٤) : إسناده جيد ، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم ٥٢ .

والمناصحة لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم »[1].

والمعنى : أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلوب ، فمن تخلق بها طهر قلبه من الخيانة والدغَل والشر .

ولا يتخلص العبد من الشيطان إلّا بالإخلاص لقول الله عز وجل : ﴿ **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [ص : ٨٣] ، وروي أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه : « يا نفس أخلصي تتخلصي » .

وكلُّ حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، قلّ أم كثر ، إذا تطرق إلى العمل ، تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه ، والإنسان مرتبط في حظوظه ، منغمس في شهواته ، قلما ينفك فعلٌ مِن أفعاله ، وعبادةٌ من عباداته عن حظوظٍ وأغراضٍ عاجلةٍ من هذه الأجناس ؛ فلذلك قيل : « مَن سلم له من عمره لحظةٌ واحدةٌ خالصةٌ لوجه الله نجا » ؛ وذلك لعزّةِ الإخلاص ، وعُسْرِ تنقيةِ القلبِ عن الشوائب . فالإخلاص : تنقية القلبِ مِن الشوائب كلها ، قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصدُ التقرب فلا يكون فيه باعثٌ سِواه ، وهذا لا يُتصور إلّا مِن محبٍ لله مستغرق الهم بالآخرة ، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرارٌ ، فمثل هذا لو أكل ، أو شرب ، أو قضى حاجته ، كان خالص العمل ، صحيح النية ، ومن ليس كذلك فبابُ الإخلاص مسدودٌ عليه إلا على الندور .

وكما أن مَن غلب عليه حبُّ الله ، وحب الآخرة ، فاكتسبت حركاتهُ الاعتيادية صفةَ همه ؛ وصارت إخلاصاً ، فالذي يَغلب على نفسه الدنيا ، والعلو ، والرياسة ، وبالجملة غير الله ؛ اكتسبت جميعُ حركاته تلك الصفة ؛

---

(١) رواه الترمذي (١٢٦/١٠) العلم وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه (٨٤/١) المقدمة ، والدارمي (٧٦/١) والبغوي في شرح السنة (٢٣٦/١) وأحمد (٨٢،٨٠/٤) وصححه الألباني .

فلا تسلم له عبادةٌ من صومٍ ، وصلاة وغير ذلك إلا نادراً .

فعلاج الإخلاص كسرُ حظوظ النفس ، وقطعُ الطمع عن الدنيا ، والتجردُ للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ؛ فإذ ذاك يتيسّر به الإخلاص . وكم من أعمال يَتعب الإنسان فيها ، ويظن أنها خالصةٌ لوجه الله ، ويكون فيها من المغرورين ؛ لأنه لم يَرَ وَجْهَ الآفةِ .

كما حُكي عن بعضهم : أنه كان يصلي دائماً في الصف الأول ، فتأخّر يوماً عن الصلاة فصلى في الصفِ الثاني ، فاعترتْه خجلةٌ من الناس حيث رأوْه في الصف الثاني ؛ فَعَلِم أن مسرّته وراحة قلبه مِن الصلاة في الصف الأول كانت بسبب نظر الناس إليه ، وهذا دقيقٌ غامضٌ قَلَّمَا تسلم الأعمالُ من أمثاله ، وقلَّ مَنِ يتنبه له إلا مَن وفقه اللَّهُ تعالى . والغافلون عنه يَرَوْن حسناتهم يومَ القيامة سيِّئاتٍ ، وهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونواْ يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئاتُ مَا كَسَبُواْ** ﴾

[الزمر : ٤٧ – ٤٨] .

وبقوله عزّ وجلّ : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً** ﴾

[الكهف : ١٠٣ – ١٠٤] .

***

بَعض الآثار عَن الإخلاص

قال يعقوب : « المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته » .

قال السوسي : « الإخلاص فَقْدُ رؤية الإخلاص ، فإن مَن شاهد في إخلاصه الإخلاص فَقَد احتاج إخلاصُه إلى إخلاص » . وما ذكر إشارة إلى تصفية العمل من العُجْب بالفعل ، فإن الالتفات إلى الإخلاص ، والنظر إليه عُجْب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا عن جميع الآفات .

قال أيوب : « تخليص النيات على العُمّال أشد عليهم من جميع الأعمال » .

وقال بعضهم : « إخلاصُ ساعة نجاةُ الأبد ، ولكنَّ الإخلاصَ عزيزٌ » .

وقيل لسهل : أي شيء أشد على النفس ؟ قال : « الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب » .

وقال الفُضَيْل : « ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعملُ من أجل الناس شرك ، والإخلاص : أن يعافيَك الله منهما » .

***

فضل النية

عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال : « أفضل الأعمال أداءُ ما افترض الله تعالى ، والورعُ عما حرم الله ، وصدقُ النية فيما عند الله تعالى » .

وقال بعض السلف : « ربّ عملٍ صغيرٍ تعظمه النية ، وربّ عمل كبير تصغره النية » .

وعن يحيي بن أبي كثير : « تَعلّموا النية ؛ فإنها أبلغ من العمل » .

وصحّ عن ابن عمر أنه سمع رجلاً عند إحرامه يقول : اللهم إني أريد الحج والعمرة فقال له : « أتُعلِم الناس ، أوَليس الله يعلم ما في نفسك » : وذلك لأن النية هي : قصد القلب ، ولا يجب التلفظ بها في شيء من العبادات وإنما يشرع فى الحج والعمرة أن يقول : لبيك اللهم بحجة أو بعمرة أو بعمرة وحجة إن كان قارناً ، وهو الذي يسمى بالإهلال .

* * *

ب – متابعة السنة

والشرط الثاني لقبول العمل أن يكون العمل مطابقاً لسنة النبي ﷺ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وفي رواية لمسلم : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »[1].

فهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام ، فكما أن حديث : « الأعمال بالنيات » ميزان للأعمال في باطنها فهو ميزان للأعمال في ظاهرها فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو رد على عامله فقوله : « ليس عليه أمرنا » إشارة إلى أن أعمال العاملين كلها ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها ، فمن كان عمله جارياً تحت أحكام الشريعة موافقاً لها فهو مقبول ، ومن كان خارجاً عن ذلك فهو مردود .

أوجب الله عزّ وجلّ علينا طاعة رسوله ﷺ قال تعالى : ﴿ **وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهُوا** ﴾ [الحشر : ٧] .
وقال تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

---

(١) رواه البخاري (٥/٣٠١) الصلح ، ومسلم (١٢/١٦) الأقضية والرد هنا بمعنى المردود أي فهو باطل غير معتد به .

وجعل الله عزّ وجلّ اتباع سنة رسول الله ﷺ علامة على محبته فقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحِبونَ الله فاتبِعُونِي يُحْبِبْكُم الله** ﴾ [آل عمران : ٣١] .

قال الحسن البصري : ادعى ناس محبة الله عزّ وجلّ فابتلاهم بهذه الآية : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني** ﴾ الآية .

كما أوصى النبي ﷺ بالتمسك بسنته وسنة خلفائه الراشدين فقال ﷺ : « فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة »[1].

قال الزهري : الاعتصام بالسنة نجاة لأن السنة كما قال مالك : مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك .

وقال سفيان : لا يقبل قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بمتابعة السنة .

وعن ابن شوذب قال : إن من نعمة الله على الشاب إذا نَسُكَ أن يوفقه الله إلى صاحب سنة يحمله عليها .

* * *

(١) رواه أحمد (١٢٦/٤ ، ١٢٧)وأبو داود (٣٥٩/١٢ ، ٣٦٠) السنة والترمذي (١٤٤/١٠) العلم وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجه (٤٣) المقدمة ، والدارمي (٤٤/١ ، ٤٥) اتباع السنة ، والبغوي في شرح السنة (٢٠٥/١) وقال : هذا حديث حسن .

٢ – فضل العلم والعلماء

والعلم هو ما قام عليه الدليل ويقصد به علم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة رضي الله عنهم .

العلـم قـال الله قـال رسولـه قـال الصحابـة ليـس بالتمويـه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين قـول فقيـه

فضائله في القرآن كثيرة ، منها قوله عز و جل : ﴿ **يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ ءامَنُواْ مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوْا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة : ١١] .

وقوله عز وجل : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر : ٩] .

وأما الأخبار ، فقول رسول الله ﷺ : « من يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدين »[١]. وقوله ﷺ : « مَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة »[٢].

وسلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي وهو المشي

---

(١) رواه البخاري (١٦٤/١) العلم ، ومسلم (٦٧/١٣) الإمارة ، ورواه الترمذي (١١٤/١٠) عن ابن عباس وقال : حديث حسن صحيح .
قال ابن الأثير : الفقه : الفهم والدراية والعلم في الأصل وقد جعله العرف خاصاً بعلم الشريعة .

(٢) رواه مسلم (٢١/١٧ ، ٢٢) الذكر والدعاء ، والترمذي (١١٥/١٠) وأبواب العلم وقال : هذا حديث حسن ، وأبو داود (٧٣/١٠) العلم ، وابن ماجه (٢٢٥) المقدمة .

بالأقدام إلى مجالس العلماء ، ويدخل فيه سلوك الطريق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم مثل حفظهِ ومدارسته .

وقوله ﷺ : « سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة » قد يراد بذلك أن الله يسهل له العلم الذي طلبه ، وسلك طريقه ، وييسره عليه ، فإنّ العلمَ طريقٌ يوصل إلى الجنة ، كما قال بعض السلف : « هل مِن طالب علمٍ فَيُعان عليه » . وقد يراد به طريق الجنة يوم القيامة وهو الصراط وما قبله وما بعده .

والعلم أيضاً يدل على الله تعالى من أقرب طريق ، فمن سلك طريقه وصل إلى الله تعالى وإلى الجنة من أقرب طريق ، والعلم أيضاً يُهتدى به في ظلمات الجهل والشُّبه والشكوك ، ولهذا سمى الله كتابه نوراً . وعن عبد الله بن عمروٍ عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ولكن يقبضه بقبض العلماء ، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناسُ رؤوساً جُهّالاً فَسُئلوا فأفتَوْا بغير علم فضَلوا وأضلّوا »[1].

وسُئل عبادة بنُ الصامت عن هذا الحديث فقال : « لو شئت لأخبرتك بأول علم يرفع من الناس : الخشوع » .

وإنما قال عبادة رضي الله عنه هذا لأن العلم قسمان : أحدهما ما كان ثمرته في قلب الإنسان ، هو العلم بالله تعالى ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله المقتضي لخشيته ، ومهابته ، وإجلاله ، ومحبته ، ورجائه ، والتوكل عليه ، فهذا هو العلم النافع كما قال ابن مسعود : « إن أقواماً يقرءون القرآن لا

(١) رواه البخاري (١/٢٣٤) العلم ، ومسلم (١٦/٢٢٣ ، ٢٢٤) العلم .
وقال الحافظ : « لا يقبض العلم انتزاعاً : أي محواً من الصدور ، وكان تحديث النبي ﷺ بذلك في حجة الوداع » .
وقال ابن المنير : محو العلم من الصدور جائز في القدرة : إلّا أن هذا الحديث دل على عدم وقوعه .

يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب فَرَسَخَ فيه نفع » . وقال الحسن : العلم علمان : علم اللسان فذاك حجة على ابن آدم ، كما في الحديث : « القرآن حجة لك أو عليك »[1]. وعلم في القلب ، فذاك العلم النافع ، فأول ما يرفع من العلمِ العلمُ النافع ، وهو العلم الباطن الذي يخالط القلوب ويصلحها ، ويبقى علم اللسان فيتهاون الناس به ولا يعملون بمقتضاه ، لا حملته ولا غيرهم ، ثم يذهب هذا العلم بذهاب حَمَلته وتقوم الساعة على شرارِ الخلقِ .

ومن الأدلة على فضل العلم وأهله كذلك :

قوله ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها »[2].

وقوله ﷺ : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبدٌ رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي في ماله ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأحسن المنازل عند الله ، ورجلٌ آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الأجر سواء ، ورجلٌ آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط في ماله لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأسوأ المنازل عند الله ، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الوزر سواء »[3].

---

(١) رواه مسلم (٣/٩٩ ، ١٠٠) الطهارة وقال النووي : فمعناه ظاهر أي تنتفع به إن تلوته وعملت به وإلا فهو حجة عليك .

(٢) رواه البخاري (١/١٦٥) العلم ، ومسلم (٦/٩٧ ، ٩٨) صلاة المسافرين ، وقال الحافظ : قوله : لا حسد : أي لا رخصة في الحسد إلا في خصلتين : أو لا يحسن الحسد إن حسن ، أو أطلق الحسد مبالغة في الحث على تحصيل الخصلتين .

(٣) رواه الترمذي (٩/١٩٩ ، ٢٠٠) أبواب الزهد وقال : حسن صحيح ، ورواه =

فعادت السعادة بجملتها على العلم وموجبه والشقاوة بجملتها على الجهل وثمرته .

قال الإمام أحمد : الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس .

وقال سفيان بن عيينة : أرفع الناس منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء .

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلمٍ تعش حياً به أبداً ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

* * *

= أحمد . (٢٣٠/٤ ، ٢٣١) وابن ماجه (٤٢٢٨) الزهد وصححه الألباني .

٣ – أنواع القلوب وأقسامها

قال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مسئولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود ، الذي تصدر كُلها عن أمره ، ويستعملها فيما شاء فكلها تحت عبوديته وقهره ، وتكتسب منه الاستقامة والزيْغ ، وتتبعه فيما يعقده من العزم ، أو يحله ، قال النبي ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسدُ كلُّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلبُ »[1] .

فهو مَلِكُها ، وهي المنفذة لما يأمرها به ، القابلة لما يأتيها من هديه ، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته ، وهو المسئول عنها كلها ؛ لأن كل راعٍ مسئول عن رعيته : كان الاهتمام بتصحيحه ، وتسديده ، أولى ما اعتمد عليه السالكون ، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (١/١٢٦) الإيمان ، ومسلم (١١/٢٧ ، ٢٨) المساقاة والمزارعة وأول الحديث : « إن الحلال بين وإن الحرام بين » .

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه للمحرمات واتقائه للشبهات بحسب صلاح قلبه فإن كان قلبه سليماً ليس فيه إلا محبة الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها واتقاء الشبهات حذراً من الوقوع في المحرمات ، وإن كان القلب فاسداً قد استولى عليه اتباع الهوى وطلب ما يحبه ولو كرهه الله فسدت حركات الجوارح كلها وانبعث إلى كل المعاصي والشبهات بحسب اتباع هوى القلب – (١/٢٨٤ ، ٢٨٥) جامع العلوم والحكم بتحقيق الأحمدي أبو النور .

ما تنسك به الناسكون .

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها ؛ انقسم بحسب ذلك إلى ثلاثة أقسام : القلب الصحيح أو السليم ، والقلب الميت ، والقلب المريض .

١ - القلب الصحيح :

هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلّا من أتى الله تعالى به ، كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إلّا مَنْ أتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] .

وقيل في تعريفه : إنه القلب الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله ، فخلصت عبوديته لله تعالى ، إرادة ، ومحبة ، وتوكلاً ، وإنابةً ، وإخباتاً ، وخشيةً ، ورجاءً ، وخلص عمله لله ، فإن أحب أحب في الله ، وإن أبغض أبغض في الله ، وإن أعطى أعطى لله ، وإن منع منع لله ، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل مَنْ عدا رسوله -ﷺ- فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الإئتمام والاقتداء به وحده ، دون كل أحد في الأقوال والأعمال ؛ فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل ؛ قال تعالى : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ لا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَى الله وَرَسُولِهِ وَاتَّقُواْ الله إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الحجرات : ١] .

٢ - القلب الميت :

وهو ضد القلب السليم ، فهو لا يعرف ربه ، ولا يعبده بأمره ، وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ، ولذاته ، ولو كان فيه سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضي ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير الله ، إنْ أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى

أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه ، فهواه آثر عنده ، وأحب إليه من رضى مولاه ، فالهوى إمامُه والشهوةُ قائدهُ ، والجهلُ سائقهُ ، والغفلةُ مركبهُ ، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور ، ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد فلا يستجيب للناصح ، ويتبع كل شيطان مريد ، الدنيا تسخطه وترضيه ، والهوى يُصمُّه عما سوى الباطل ويعميه ، فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ، ومعاشرته سمّ ، ومجالسته هلاك .

٣ – القلب المريض :

قلب له حياة وبه علة تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه من محبة الله تعالى ، والإيمان به ، والإخلاص له والتوكل عليه ، ما هو مادة حياته . وفيه من محبة الشهوات ، وإيثارها ، والحرص على تحصيلها ، والحسد ، والكبر ، والعجب ، ما هو مادة هلاكه وعطبه ، فهو مُمْتَحَن من داعيين : داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة ، وداع يدعوه إلى العاجلة ، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً ، وأدناهما إليه جواراً .

فالقلب الأول : حي ، مخبت ، لين ، واع ، **والثاني** : يابس ، ميت ، **والثالث** : مريض ، فإما إلى السلامة أدنى ، وإما إلى العطب أدنى .

***

علامات مرض القلب وصحته

• علامات مرض القلب :

قد يمرض قلب العبد ، ويشتد المرض ، ولا يعرف به صاحبه . بل قد يموت وصاحبه لا يعرف بموته ، وعلامة مرضه أو موته ، أن صاحبه لا تؤلمه جراحات المعاصي ، ولا يوجعه جهله بالحق ، وعقائدهُ الباطلة ، فإن القلب إذا كان حياً تألم بورود القبائح عليه ، وتألم بجهله بالحق - بحسب حياته - وقد يشعر بالمرض ، ويشتد عليه مرارةُ الدواء ؛ فهو يؤثر بقاء الألم على مشقة الدواء .

ومن علامات أمراض القلوب عدولُها عن الأغذية النافعة إلى الضارة ، وعدولها عن الدواء النافع إلى دائها الضار ، فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي ، والقلب المريض بضد ذلك . وأنفع الأغذية : غذاء الإيمان ، وأنفع الأدوية : دواء القرآن .

• علامات صحة القلب :

أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ، ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها ، وأبنائها ، جاء إلى هذه الدار غريباً يأخذ منها حاجته ويعود إلى وطنه ، كما قال ﷺ لعبد الله ابن عمر : « كن في الدنيا كأنك غريب أو

عابر سبيل »[1].

وكلما مرض القلب آثر الدنيا ، واستوطنها ، حتى يصير من أهلها .

– ومن علامات صحة القلب : أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ، ويخبت إليه ، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه ؛ فيستغني بحبه عن حب ما سواه ، وبذكره عن ذكر ما سواه ، وبخدمته عن خدمة ما سواه .

– ومن علامات صحة القلب: أنه إذا فاته وردهُ أو طاعة من الطاعات ؛ وَجَدَ لذلك ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده .

– ومن علامات صحته : أنه يشتاق إلى الخدمة كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب .

قال يحيى بن معاذ : « من سُر بخدمة الله سُرت الأشياء كلها بخدمته وَمن قَرّت عينه بالله قرّت عُيون كل أحدٍ بالنظر إليه » .

– ومن علامات صحته : أن يكون همه واحداً ، وأن يكون في الله – يعني في طاعة الله .

– ومن علامات صحته : أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً كأشد الناس شحاً بماله .

– ومن علامات صحته : أن يكون إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا ، ووجد فيها راحتَه ونعيمَه وقرةَ عينه ، وسرورَ قلبه .

– ومن علامات صحته : أن لا يفتر عن ذكر ربه ، ولا يسأم من

---

(١) رواه البخاري (٢٣٣/١١) الرقاق ، وأحمد (٢٤/٢ ، ٤١) والترمذي (٢٠٣/٩) ، الزهد ، وأبو نعيم في الحلية (٣٠١/٣) .

خدمته ، ولا يأنس بغيره إلّا بمن يدله عليه ويذكّره به .

– **ومنها** : أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل ، فيحرص على الإخلاص فيه ، والنصيحة ، والمتابعة ، والإحسان ، ويشهد مع ذلك مِنَّةَ الله عليه فيه ، وتقصيرَه في حق الله .

أسبَابُ مَرض القلب

والفتن التي تُعرض على القلوب هي أسباب مرضها ، وهي فتن الشهوات والشبهات ، فالأولى : توجب فسادَ القصد والإرادة ، والثانية : توجب فسادَ العلم والاعتقاد .

عن حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير ، عوداً عوداً ، فأيّ قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين : قلبٍ أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّياً ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلّا ما أُشرب من هواه ، وقلبٍ أبيض لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض »(١) .

فقسّم ﷺ القلوب عند عرض الفتن عليها إلى قسمين : قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب السفنج الماء ؛ فتنكت فيه نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسودّ وينتكس ، وهو معني قوله : « كالكوز مجخياً » أي مكبوباً منكوساً ، فإذا اسودّ وانتكس عرض له من

(١) رواه مسلم (٢/٢٧٠ ، ٢٧٢) الإيمان .

وقوله : « مُرْبَادّا » المربد الذي لونه رُبْدَة وهي بين السواد والغبرة و « المجخّى » هو المائل عن الاستقامة والاعتدال .

هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك ، **أحدهما** : اشتباه المعروف عليه بالمنكر ، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة ، والبدعة سنة ، والحق باطلاً ، والباطل حقاً . **الثاني** : تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ وانقياده للهوى ، واتباعه له .

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان ، وأزهر فيه مصباحه ، فإذا عرضت الفتنة أنكرها وردّها ؛ فازداد نوره وإشراقه .

٤ — سموم القلب الأربعة

اعلم أن المعاصي كلها سموم للقلب ، وأسباب لمرضه وهلاكه ، وهي منتجة لمرض القلب وإرادته غير إرادة الله عزّ وجلّ ، وسبب لزيادة مرضه .

قال ابن المبارك :

رأيتُ الذنوبَ تُميت القلوبَ وقد يورثُ الذلَ إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانُها

فمن أراد سلامة قلبه وحياته فعليه بتخليص قلبه من آثار تلك السموم ، ثم بالمحافظة عليه بعدم تعاطي سموم جديدة ، وإذا تناول شيئاً من ذلك خطأ سارع إلى محو أثرها بالتوبة والاستغفار ، والحسنات الماحية .

ونقصد بالسموم الأربعة : فضول الكلام ، وفضول النظر ، وفضول الطعام ، وفضول المخالطة ، وهي أشهر هذه السموم انتشاراً ، وأشدها تأثيراً في حياة القلب .

❋ ❋ ❋

١ – فضول الكلام

الحمد لله الذي أحسن خلق الإنسان وعَدَّله ، وألهمه نور الإيمان فزينه به وَجمَّلَهُ ، وعلمه البيان فقدمه به وفضله ، وأمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ، فاللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة ، فإنه صغير جِرْمُه عظيم طاعته وجُرمه ، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ، ومن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخي العنان سلك به الشيطان في كل ميدان ، وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار . ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ، عن معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم – أو قال : على مناخرهم – إلّا حصائد ألسنتهم ؟ »[1].

والمراد بحصائد الألسنة : جزاء الكلام المحرم وعقوباته فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات ؛ ثم يحصد يوم القيامة ما زرع ، فمن زرع خيراً من قولٍ أو عملٍ حصد الكرامة ، ومن زرع شراً من قول أو عمل حصد الندامة .

وقد وردت الأخبار الكثيرة في التحذير من آفات اللسان وبيان خطره

(١) رواه الترمذي (١٠/٨٧، ٨٨) الإيمان وقال : حسن صحيح وابن ماجة (٣٩٧٣) الفتن ، والحاكم (٢/٤١٣) التفسير وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه الألباني .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : « قلت يارسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ ؟ قال : هذا وأخذ بلسانه »[1].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : « قلت يارسول الله ما النجاة ؟ » قال : « أمسك عليك لسانك ... »[2].

وقال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[3].

وهو من جوامع كلمة ﷺ فالكلام إما أن يكون خيراً فيكون العبد مأموراً بقوله ، وإما أن يكون غير ذلك فيكون مأموراً بالصمت عنه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب »[4] .

وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه قال : « والله الذي لا إلٰه

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٩/٩) الزهد وقال حسن صحيح ، وابن ماجة (٣٩٧٢) الفتن ، والدارمي (٢٩٨/٢) الرقاق ، والحاكم (٣١٣/٢) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي والألباني .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٧/٩) الزهد ، وأحمد (٢٥٩/٥) وابن المبارك (١٣٤) الزهد وصححه الألباني لطرقه في الصحيحة رقم ٨٩٠ .

(٣) رواه البخاري (٤٤٥/١٠) الأدب ، ومسلم (١٨/٢) الإيمان ، وأبو داود (٥٠٣٢) الأدب وابن ماجة (٣٩٧١) الفتن .

(٤) رواه البخاري (٢٦٦/١١) الرقاق ، ومسلم (١٨/ ١١٧) الزهد ، والترمذي (١٩٥/٩) الزهد بلفظ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوي بها سبعين خريفاً في النار » وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

إلّا هو ليس شيء أحوج إلى طول سجن من لساني » .

وكان يقول : « يا لسان قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم » .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : أنصف أُذنيك من فِيك وإنما جعل لك أذنان وفم واحدٌ لتسمع أكثر مما تتكلم .

وعن الحسن البصري : قال : كانوا يقولون : إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه ، فإذا هم بشيءٍ أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه.

فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه ؟

فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات فهذه آفات كثيرة وهي سياقة إلى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، فلذلك عظمت فضيلة الصمت ، مع مافيه من جمع الهم ، ودوام الوقار ، والفراغ للفكر والذكر والعبادة ، والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ، ومن حسابه فى الآخرة فقد قال تعالى : ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق : ١٨] .

* * *

٢ – فضول النظر

فضول النظر : هو إطلاقه بالنظر إلى الشيء بملء العين ، والنظر إلى ما لا يحل النظر إليه وهو على العكس من غض البصر ، والغض : هو النقص وقد أمر الله عزّ وجلّ به فقال : ﴿ **قُلْ لِّلمُؤْمِنينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحفَظُواْ فُرُوجَهم ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِّلمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنَ أَبْصَارِهن وَيحفظْنَ فُروجَهن** ﴾ [النور : ٣٠] .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ : « كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدركٌ ذلك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطى ، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه »[١].

وعن جرير – رضي الله عنه – قال : سألت رسول الله ﷺ : عن النظر الفجأة فقال : « اصرف بصرك »[٢].

---

(١) رواه البخاري (٢٦/١٠) الاستئذان ، و مسلم (٢٠٥/١٦ ، ٢٠٦) القدر ، وأبو داود (٢١٣٩) ، النكاح ، وأحمد (٢٧٦/٢) .

(٢) رواه مسلم (١٣٩/١٤) الأدب ، والترمذي (٢٢٩/١٠) الأدب ، والدارمي (٢٢٨/٢) الاستئذان ، وأحمد (٣٥٨/٤، ٣٦١) ، ومعنى نظر الفجأة أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال فإن صرف في الحال فلا إثم عليه وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث فإن رسول الله ﷺ أمره بصرف بصره مع قوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ... ﴾ شرح النووي على صحيح مسلم هامش (١٣٩/١٤).

وفضول النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور في قلب الناظر ، فيُحدث أنواعاً من الفساد في قلب العبد منها :

أن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ؛ فمن غضّ بصره لله أورثه حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه .

ومنها : دخول الشيطان مع النظرة ، فإنه ينفذ معها أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي ؛ ليزين صورة المنظور ، ويجعلها صنماً يعكف عليه القلبُ ، ثم يَعِدهُ ويمنيه ، ويوقد على القلب نار الشهوات ويلقي حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة .

ومنها : أنه يشغل القلب ، وينسيه مصالحه ، ويحول بينه وبينها ؛ فينفرط عليه أمره ، ويقع في اتباع الهوى والغفلة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هواهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** ﴾ [الكهف : ٢٨] .

وإطلاق البصر يوجب هذه الأمور الثلاثة .

وقال أطباء القلوب : بين العين والقلب مَنْفذ وطريق ، فإذا خَربت العين وفسدت خَرب القلبُ وفسدَ وصار كالمزبلة التي هي محل النجاساتِ والقاذوراتِ والأوساخِ ، فلا يصلح لسكْنى معرفةِ الله ومحبتهِ ، والإنابة إليه ، والأنس به ، والسرور بقربه ، وإنما يسكن فيه أضدادُ ذلك .

وإطلاقُ البصر معصية لله عز وجل لقوله تعالى : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النور : ٣٠] .

وما سعد مَن سعد في الدنيا إلّا بامتثال أمر الله ، ولا نجاة للعبد في الآخرة إلّا بامتثال أوامر الله عزّ وجلّ .

وإطلاق البصر كذلك يُلبس القلبَ ظلمة ، كما أن غضّ البصر لله عزّ

وجلّ يُلبسه نوراً ، وقد ذكر الله عزّ وجلّ آية النور : ﴿ **الله نُورُ السَّمٰوٰتِ وَالأرضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾ [النور : ٣٥] .

بعد قوله عزّ وجلّ : ﴿ **قُلْ لِّلمُؤمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهم ...** ﴾ .

وإذا استنار القلب ، أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية ، كما أنه إذا أظلم ؛ أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان .

وإطلاقُ البصر كذلك يعمي القلبَ عن التمييز بين الحق والباطل ، والسنةِ والبدعة ، وغضهُ لله عزّ وجلّ يورثه فراسة صادقة يميز بها .

قال أحد الصالحين : « من عمّر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغضّ بصره عن المحارم ، وكفّ نفسه عن الشبهات ، واغتذى بالحلال لم تخطىء له فراسة » .

والجزاء مِن جنس العمل ؛ فمن غضّ بصره عن محارم الله أطلق الله نورَ بصيرته .

❋ ❋ ❋

٣ – فضول الطعام

قلةُ الطعام توجب رقةَ القلب ، وقوة الفَهم ، وانكسارَ النفس ، وضعفَ الهوى والغضب ، وكثرةُ الطعام توجب ضد ذلك .

عن المقدام بن مَعْديكرِب قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « ما ملأ ابن آدم وعاءاً شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لِنَفَسِه »(١).

وفضول الطعام داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ، ويثقلها عن الطاعات والعبادات ، وحسبك بهذين شراً ، فكم من معصية جلبها الشبعُ وفضولُ الطعام ، وكم مِن طاعة حال دونها ، فمن وقى شرّ بطنه فقد وقي شراً عظيماً ، والشيطان أعظم ما يتحكم في الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام ؛ ولهذا جاء في بعض الآثار : إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال بعض السلف : كان شباب يتعبدون مِن بني إسرائيل ، فإذا كان فطرهم قام عليهم قائم فقال : « لا تأكلوا كثيراً ؛ فتشربوا كثيراً ؛ فتناموا كثيراً ؛ فتخسروا كثيراً » .

وقد كان النبي ﷺ وأصحابه يجوعون كثيراً – وإن كان ذلك لعدم وجود الطعام – إلّا أن الله لا يختار لرسوله إلّا أكمل الأحوال وأفضلها ،

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٤/٩) الزهد وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجه (٣٣٤٩) الأطعمة ، والحاكم (١٢١/٤) وصححه ووافقه الذهبي والألباني .

ولهذا كان ابن عمر يتشبه به في ذلك مع قدرته على الطعام ، وكذلك كان أبوه من قبله .

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : « ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة مِن خبز بُرٍ ثلاث ليال تباعاً حتى قبض »[1].

قال إبراهيم بن أدهم : « من ضبط بطنه ضبط دينَه ، ومن ملك جوعَه ملك الأخلاقَ الصالحةَ ، وإن معصية الله بعيدةٌ من الجائع قريبةٌ من الشبعان » .

* * *

(١) رواه البخاري (١١/٢٨٢) الرقاق ، ومسلم (١٨/١٠٥ ، ١٠٦) الزهد .

٤ – فضول المخالطة

هي الداء العضال الجالب لكل شر ، وكم سَلبت المخالطةُ والمعاشرةُ مِن نعمةٍ ، وكم زَرَعت مِن عداوة ، وكم غَرست في القلبِ من حزازاتٍ تزول الجِبالُ الراسياتُ وهي في القلوب لا تزول ؛ ففي فضول المخالطة خسارةُ الدنيا والآخرة. وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بقدر الحاجة، ويجعل الناس فيها أربعة أقسامٍ متى خلط أحد الأقسام بالآخر و لم يميز بينها دخل عليه الشر:

أحدهما : مَن مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة ، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليه خالطه ، هكذا على الدوام ، وهُم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه ، وأمراضِ القلوبِ وأدويتها الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كلَّ الربح .

القسم الثاني : مَن مخالطته كالدواء ، يحتاج إليه عند المرض ، فما دُمْتَ صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وما أنت تحتاج إليه من أنواع المعاملات والاستشارة ونحوها ، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم مِن :

القسم الثالث : وهم مَن مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه ، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه دين ولا دنيا ، ومع ذلك فلابد أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلتْ فهي مرضُ الموت المخوف . ومنهم الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت

فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها ، بل إذا تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به ، فهو يُحدِث من فيه كلما تحدث ويظن أنه مسك يطيب به المجلس ، وإذا سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة ، ومِن نكد الدنيا على العبد أن يبتلي بواحدٍ من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ، فليعاشره بالمعروف ويعطيه ظاهره ويبخل عليه بباطنه حتى يجعل الله له من أمره فَرَجاً ومخرجاً .

القسم الرابع : مَن مخالطته الهلك كله ، فهي بمنزلة أكل السم ، فإذا اتفق لآكله ترياق وإلّا فأحسن الله العزاء ، وما أكثر هذا الضرب في الناس — لا كثرهم الله — وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله ﷺ ، الداعون إلى خلافها ، فيجعلون السنة بدعة والبدعة سنة ، وهذا الضرب لا ينبغي للعاقل أن يجالسهم أو يخالطهم ، وإن فعل فإما الموت لقلبه أو المرض .

نسأل الله لنا ولهم العافية والرحمة .

❋ ❋ ❋

٥ – أسبابُ حياة القلب وأغذيته النافعة

اعلم أن الطاعات لازمة لحياة قلب العبد لزوم الطعام والشراب لحياة الجسد ، وجميعَ المعاصي بمثابة الأطعمة المسمومة التي تفسد القلب ولابد ، والعبد محتاج إلى عبادة ربه عزّ وجلّ ، فقير إليه فقراً ذاتياً ، وكما يأخذ العبد بالأسباب لحياة جسده من المداومة على تناول الأغذية النافعة في أوقات متقاربة ، وإذا تبين له أنه تناول طعاماً مسموماً عن طريق الخطأ أسرع في تخليص جسده من الأخلاط الرديئة ، فحياة قلب العبد أولى بالاهتمام من جسده ، فإن كانت حياة الجسد تؤهله لمعيشة غير منغصة بالمرض في الدنيا فحياة القلب تؤهله لحياة طيبة في الدنيا وسعادة غير محدودة في الآخرة ، وكذلك موت الجسد يقطعه عن الدنيا ، وموت القلب تبقى آلامه أبد الآباد .

وقال أحد الصالحين : « يا عجباً من الناس يبكون على من مات جسدهُ ولا يبكون على من مات قلبه ، وهو أشد » . فإذن الطاعات كلها لازمة لحياة القلب ونخص هذه بالذكر – لضرورتها لقلب العبد وشدة الحاجة إليها – ذكر الله عزّ وجلّ ، وتلاوة القرآن ، والاستغفار ، والدعاء ، والصلاة على النبي ﷺ ، وقيامَ الليل .

❋ ❋ ❋

١ – ذكر الله وَتلاوة القرآن

وضرورة الذكر للقلب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – : « الذكر للقلب كالماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا أخرج من الماء » وقد ذكر الإمام شمس الدين ابن القيم ما يقرب من ثمانين فائدةَ في كتابه : « الوابل الصيب » ، فننقل بعضها بإذن الله تعالى ، وننصح بالعودة إلى الكتاب المذكور لعظيم نفعه . ومن هذه الفوائد :

أن الذكر قوت القلب والروح ، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته . ومنها إنه يطرد الشيطان ، ويقمعه ، ويكسره ، ويرضي الرحمن عزّ وجلّ ، ويزيل الهم والغمّ عن القلب ، ويجلب له الفرح والسرور والبسط ، وينور القلب والوجه ، ويكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة ، ويورثه محبة الله عزّ وجلّ ، وتقواه ، والإنابة إليه ، وكذلك يورث العبدَ ذكرَ الله عزّ وجلّ كما قال تعالى : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم** ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

ولو لم يكن في الذكر إلّا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً ، ويورث جلاء القلب من الغفلة ، ويحط الخطايا .

ورغم أنه من أيسر العبادات ؛ فالعطاء والفضل الذي رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قديّر . في اليوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة

حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلّا رجل عمل أكثر منه »[1].

وعن جابر عن النبي ﷺ قال : « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة »[2].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لأن أُسبِّحَ الله تعالى تسبيحات أحب إليّ من أن أنفق عددهم دنانير في سبيل الله عزّ وجلّ » .

والذكر دواء لقسوة القلوب ؛ كما قال رجل للحسن : يا أبا سعيد : أشكو إليك قسوة قلبي ، قال : « أَذِبْه بالذكر » . وقال مكحول : « ذكْر الله شفاءٌ ، وذكْر الناس داءٌ » . قال رجل لسلمان : أي الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن « ولذكر الله أكبر » .

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحيّ والميّت »[3].

ودوام الذكر تكثير لشهود العبد يوم القيامة ،وسببٌ لاشتغال العبد عن الكلام الباطل من الغيبة والنميمة وغير ذلك ، فإما لسان ذاكر وإما لسان لاغ ، فمن فُتح له بابُ الذكر فقد فُتح له بابُ الدخول على الله عزّ وجلّ ،

---

(١) رواه البخاري (٣٣٨/٦ ، ٣٣٩) بدء الخلق ، ومسلم (١٧/١٧) الذكر ، والترمذي (١٦/١٣ ، ١٧) الدعاء .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٣١ تحفة) الدعوات ، وابن حبان (٢٣٣٥) موارد ، والحاكم (٥٠١/١ ، ٥٠٢) وقال الترمذي : حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وصححه الألباني في الصحيحة .

(٣) رواه البخاري (٢٠٨/١١) الدعوات ، ومسلم (٦٨/٦) صلاة المسافرين بلفظ : « مثل البيت الذي لا يذكر الله فيه ، والبيت الذي يذكر الله فيه مثل الحي والميت » .

فليتطهر وليدخل على ربه عزّ وجلّ ، يجد عنده ما يريد ، فإنْ وجدَ ربه عزّ وجلّ وجد كل شيء ، وإن فاته ربه عزّ وجلّ فاته كل شيء .

وللذكر أنواع : منها : ذكر أسماء الله عزّ وجلّ ، وصفاته ، ومدحه ، والثناء عليه بها ، نحو : « سبحان الله » ، و « الحمد لله » ، و « لا إله إلا الله » ؛ ومنها : الخبر عن الله عزّ وجلّ بأحكام أسمائه وصفاته ، نحو : الله عزّ وجلّ يسمع أصوات عباده ويرى حركاتهم ، ومنها : ذكر الأمر والنهي كأن تقول : إن الله عزّ وجلّ أمر بكذا ، ونهى عن كذا .

ومن ذكره سبحانه وتعالى ذكرُ آلآئه وإحسانه ، وأفضل الذكر : تلاوة القرآن ، وذلك لتضمنه لأدوية القلب وعلاجه من جميع الأمراض ، قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ** ﴾ [يونس : ٥٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وأمراض القلب تجمعها أمراض الشبهات والشهوات ، والقرآن شفاء للنوعين ، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يُبيِّنُ الحقَ من الباطلِ فتزول أمراض الشبه المفسِدة للعلم ، والتصورِ ، والإدراكِ ، بحيث يرى الأشياء على ما هي .

فمن درس القرآن وخالط قلبه ؛ أبصر الحق والباطلَ وميّزَ بينهما ، كما يُميز بعينيه بين الليل والنهار . وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة ؛ بالتزهيد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة .

وبالجملة فأنفع شيء للعبد هو ذكر الله عزّ وجلّ : ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] .

وأفضل الذكر تلاوة كتاب الله عزّ وجلّ .

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُون كِتَابَ اللَّهِ وأَقَامُوا الصَّلَاةَ وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرَّاً وعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارةً لَنْ تَبُورَ لِيوَفِيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم من فَضْلِه إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ [فاطر : ٢٩ - ٣٠] .

وعن عثمان رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ فيه مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن وهو يتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران »[٢].

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الـٓمٓ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف »[٣].

وقال خباب رضي الله عنه : « تقرب إلى الله ما استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه » .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : « لو طهُرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن ، فإن أحب القرآن فهو يحب الله فإنما القرآن كلام الله » .

---

(١) رواه البخاري (٦٧/٦٦/٩) فضائل القرآن ، والترمذي (٣٢/١١) ثواب القرآن ، وأبو داود (١٤٣٩) الصلاة .

(٢) رواه البخاري (٦٩١/٨) التفسير ، ومسلم (٨٤/٦) صلاة المسافرين ، وأبو داود (١٤٤١.١٠) الصلاة ، والترمذي (٢٩/١٢) فضائل القرآن .

(٣) رواه الترمذي (٣٤/١١) فضائل القرآن وقال : هذا حديث حسن صحيح .

٢ – الاستغفار

وهو طلب المغفرة ، والمغفرة : هي وقاية شر الذنوب مع سترها ، وقد كثر ذكر الاستغفار في القرآن ، فتارة يؤمر به كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَاسْتَغْفِرُواْ الله إن الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المزمل : ٢٠] .

وتارة يمدح أهله كقوله تعالى : ﴿ **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ [آل عمران : ١٧] .

وتارة يذكر أن الله يغفر لمن استغفره كقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ [النساء : ١١٠] .

وكثيراً ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة ، فيكون الاستغفار حينئذٍ عبارة عن طلب المغفرة باللسان .

والتوبة عبارة عن : الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح ، وحكم الاستغفار كحكم الدعاء فإن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه ، لا سيما إذا خرج عن قلب منكسر بالذنوب أو صادف ساعةً من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات .

ويروى عن لقمان أنه قال لابنه : يا بني عود لسانك : « اللهم اغفر لي » فإن لله ساعات لا يردُّ فيها سائلاً . وقال الحسن : « أكثروا من الاستغفار في بيوتكم ، وعلى موائدكم ، وفي طرقكم ، وفي أسواقكم ، وفي مجالسكم ، وأينما كنتم ؛ فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة يقول : « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور »[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »[2].

وعنه ﷺ قال : « إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة »[3].

وبيَّن الله عزّ وجلّ في الحديث القدسي ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك و لا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »[4].

وبالجملة فدواء الذنوب الاستغفار . قال قتادة : إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم فأما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالاستغفار . وقال عليّ رضي الله عنه : ما ألهم الله سبحانه عبداً الاستغفارَ وهو يريد أن يُعذبَه .

(١) رواه أحمد (٤٧٢٦) ، وأبو داود (١٥٠٠) الصلاة ، وابن ماجه (٣٨١٥) الأدب ، وصححه الألباني .

(٢) رواه البخاري (١٠١/١١) الدعوات ، ومسلم عن ابن عمر (٢٤/١٧) الذكر بلفظ : « فإني أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » .

(٣) رواه مسلم (٢٣/١٧) الذكر ، وأبو داود (١٥٠١) الصلاة وقوله : « ليغان » أي ليغطى ويغشى ، والمراد به : السهو .

(٤) رواه الترمذي (٥٩/١٣ ، ٦٠) الدعاء ، وأحمد (١٥٤/٥) والدارمي (٣٢٢/٢) وشهر بن حوشب مختلف فيه وباقي رجاله ثقات وله شاهد من حديث أبي ذر وحسنه الألباني في الصحيحة رقم ١٢٧

٣ – الدعاء

قال الله تعالى : ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾ ، فأمرنا الله عزّ وجلّ بالدعاء ، ووعدنا بالإجابة ، ثم عقب بقوله عزّ وجلّ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [غافر : ٦٠] .

فسبحان الله العظيم ، ذي الكرم الفياض والجود المتتابع ؛ جعل سؤال عبده لحوائجه وقضاء مآربه عبادة له ، وطلبه منه وذمه على تركه بأبلغ أنواع الذم فجعله مستكبراً عليه .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « من لم يسأل الله يغضب عليه »[1].

وما أحسن قول القائل :

لاَ تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ .
الله يَغْضَبُ إن تَرَكْتَ سُؤَالَهَ ... وَإِذَا سَأَلْتَ بُنَيَّ آدَمَ يَغْضَبُ .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَّرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السّوءَ** ... ﴾ [النمل : ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

---

(١) رواه أحمد (٤٤٢/٢) والترمذي (٢٦٧/١٢ ، ٢٦٨) التفسير ، وابن ماجه (٣٨٢٧) الدعاء ، والبخاري في الأدب المفرد (٦٥٨) والحاكم (٤٩١/١) وصححه ووافقه الألباني .

وعن النعمان بن بشير قال : قال ﷺ : « الدعاء هو العبادة » ثم تلا الآية : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّم دَاخِرِين** ﴾[1].

والدعاء يقطع بقبوله لعموم الآيات التي قدمنا ذكرها ، وكذلك الأحاديث الآتية – إذا استوفى شروط الصحة .

وعن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله حيٌّ كريم يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفراً خائبتين »[2].

وعن أبي سعيد الخدري ، أن النبي ﷺ وآله قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلّا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها »[3].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أنا لا أحمل همّ الإجابة ولكن أحمل همّ الدعاء فمن ألهم الدعاء فإن الإجابة معه » .

فالدعاء سبب مُقتضٍ للإجابة إذا توفرت الشرائط وانتفت الموانع أي إذا راعى العبد آداب الدعاء . فما هي آداب الدعاء ؟

---

(١) رواه أبو داود (١٤٤٦) الصلاة ، والترمذي (٢٦٧/١٢) التفسير وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (٣٨٢٨) الدعاء ، والحاكم (٤٩٠/١ ، ٤٩١) وصححه ووافقه الذهبي والألباني .

(٢) رواه الترمذي (٦٨/١٣) الدعاء وقال : حسن غريب ، وأبو داود (١٤٧٤) الصلاة ، وابن حبان (٢٣٩٩) موارد والحاكم (٤٩٧/١) وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) رواه الحاكم (٤٩٣/١) وصححه ووافقه الذهبي . وله شاهد رواه الترمذي (٣٦٢١) عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من أحدٍ يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كف عنه من سوءٍ مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » . وحسنه الألباني في تحقيق المشكاة وصحيح الترمذي .

آداب الدعاء

أن يترصّد لدعائه الأوقات الشريفة : كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من الليل .

أن يغتنم الأحوال الشريفة : كنزول المطر ، وزحف الصفوف في سبيل الله ، وحال السجود ، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء »[1].

وكذلك بين الأذان والإقامة ؛ لقوله ﷺ : « الدعاء بين الأذان والإقامة لا يردّ »[2].

أن يجزم بالدعاء ، ويوقن بالإجابة ، قال ﷺ : « لا يقولن أحدكم : اللهمّ اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم المسألة فإنه لا مستكره له »[3].

أن يكون على طهارة ، مستقبل القبلة ، ويكرر الدعاء ثلاثاً .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعا ، دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً .[4].

---

(١) رواه مسلم (٢٠٠/٤) الصلاة ، وأبو داود (١٢٨/٣) الصلاة ، والنسائي (٢٢٦/٢) الصلاة .

(٢) رواه الترمذي (١٣/٢) أبواب الصلاة وحسنه ، وأبو داود (٥١٧) الصلاة وصححه الألباني .

(٣) رواه البخاري (١٣٩/١١) الدعوات ، ومسلم (٦/١٧) الذكر .

(٤) رواه مسلم (١٥٢/١٢) الجهاد والسير .

يبدأ بحمد الله عزّ وجلّ ، ويثني عليه بأسمائه ، وصفاته ، وآلائه ، ويثنّي بالصلاة على رسول الله ﷺ ثم يسمي حاجته ، ويختم كذلك بالصلاة على رسول الله ﷺ وحمد الله عزّ وجلّ .

ويطيب مطعمه ، ولا يدعو بإثم ، ولا بقطيعة رحم .

لا ينبغي تعجل الإجابة ، ولا يقول : دعوت ولم يستجب لي ، لحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لي »[1].

قال ابن بطال : « المعنى أنه يسأم فيترك الدعاء فيكون كالمانّ بدعائه أو أنه أتى من الدعاء ما يستحق به الإجابة ، فيصير كالمبخل للرب الكريم الذي لا تعجزه الإجابة ، ولا ينقصه العطاء » . اهـ .

وفي هذا الحديث أدب من آداب الدعاء ، وهو أن يلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة ؛ لما في ذلك من الاستسلام والانقياد وإظهار الافتقار .

***

(١) رواه البخاري (١٤٠/١١) الدعوات ، ومسلم (٥١/١٧) الذكر ، والترمذي (٢٧٦/١٢) الدعاء ، وأبو داود (١٤٧٠) الصلاة .

٤ - الصلاة على النبي ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وملائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

قال ابن كثير رحمه الله : المقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه في الملأ الأعلى عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه ، ثم أمر تعالى العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً .

وقال ابن القيم : والمعنى أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله فصلوا أنتم أيضاً عليه لما نالكم ببركة رسالته ويُمْن سفارته من خير شرف الدنيا والآخرة ، والصلاة من الله عزّ وجلّ هي الثناء وإظهار الشرف وإرادة التكريم ، وصلاة المخلوقين الدعاء بمزيد من الشرف والتكريم .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « من صلّى علي واحدة صلّى الله عليه عشراً »[1].

أي عشر صلوات وذلك لأن الحسنة بعشر أمثالها والصلاة على النبي ﷺ من أعظم الحسنات .

قال ابن العربي : « إن قيل : قال الله تعالى : ﴿ مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ

(١) رواه مسلم (٤/١٢٨) الصلاة ، والترمذي (٢/٢٧٠) الصلاة ، وأبو داود (١٥١٦) الصلاة ، والنسائي (٣/٥٠) السهو .

عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

فما فائدة هذا الحديث ؟ قلنا : أعظم فائدة وذلك أن القرآن اقتضى أن من جاء بحسنة تضاعف عشرة ، والصلاة على النبي ﷺ حسنة بمقتضى القرآن أن يعطي عشر درجات في الجنة . فأخبر أن الله تعالى يصلّي على من صلّى على رسوله عشراً ، وذكْرُ الله للعبد أعظمُ من الحسنة مضاعفة ، ويحقق ذلك أن الله تعالى لم يجعل جزاء ذكره إلّا ذكْرَه ، وكذلك جعل جزاء ذكر نبيه ذكر من ذكره » اهـ .

قال العراقي : ولم يقتصر على ذلك حتى زاده كتابة عشر حسنات ، وحط عنه عشر سيئات ، ورفعه عشر درجات ، كما ورد في الأحاديث .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ علي ، ورغم أنف رجل أدرك أبويه عنده الكبر فلم يدخلاه الجنة ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له »[1].

وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « إن لله ملائكة سياحين يبلغوني من أمتي السلام »[2].

وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ أو سأل لي الوسيلة حقت عليه شفاعتي يوم القيامة »[3]

(١) رواه الترمذي (٦٤١٣ تحفة) الدعاء ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، والحاكم (٥٤٩/١) الدعاء مقتصراً على الفقرة الأولى وقال الألباني : إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح .

(٢) رواه النسائي (٤٣/٣) السهو ، والحاكم (٤٢١/٢) التفسير وصححه ووافقه الذهبي وقال الألباني : إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح .

(٣) رواه مسلم (٨٥/٤) الصلاة ، وأبو داود (٥١٩) الصلاة ، والترمذي (١٠٢/١٣) المناقب ، والنسائي (٢٥/٢ ، ٢٦) الأذان .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جلس قومٌ مجلساً لم يذكروا الله ولم يصلوا على نبيهم ﷺ إلا كان مجلسهم عليهم ترة يوم القيامة ، إن شاء عفا عنهم وإن شاء أخذهم »[1].

ويستحب كثرة الصلاة على رسول الله ﷺ يوم الجمعة لحديث أوس ابن أوس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليّ » ، قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرَمْتَ[2] يعني بليت ؟ فقال : « إن الله عزّ وجلّ حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »[3].

أما صيغة الصلاة على رسول الله ﷺ :

فعن أبي مسعود الأنصاري قال : « أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : قولوا : « اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميدٌ مجيد، والسلام كما قد علمتم».

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٤٠ تحفة) الدعاء ، وحسنه وصححه الألباني في الصحيحة ، ومعنى ترة : أي حسرة .

(٢) رواه أبو داود (١٠٣٤) الصلاة ، والنسائي (٣/٩١ ، ٩٢) الجمعة ، وابن ماجه (١٠٨٥) الصلاة ، والحاكم (١/٢٧٨) الجمعة ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي على شرط البخاري ، وصححه الألباني .

(٣) رواه مسلم (٤/١٢٤ ، ١٢٥) الصلاة ، ومالك في الموطأ (١/١٦٥ ، ١٦٦) والترمذي (١٢/٩٥) التفسير ، وأبو داود (٩٦٧) السهو والنسائي (٣/٤٥ ، ٤٦) .

٥ - قيام الليل

الآيات في فضيلة قيام الليل :

قال الله تعالى : ﴿ **كَانُوا قَلِيْلاً مِنْ الليلِ مَا يَهْجَعُون * وَبالأسْحَارِ هُم يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات : ١٧ - ١٨] ، وهي في وصف المحسنين .

عن قتادة ومجاهد قالا : كانوا لاينامون ليلة حتى الصباح .

وعن ابن عباس : لم تكن تمضي عليهم ليلة إلّا يأخذوا منها شيئاً .

وقال تعالى في وصف عباد الرحمن : ﴿ **وَالذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبْهِم سُجَّداً وَقِيَاماً** ﴾ [الفرقان : ٦٤] .

وذكر الله تعالى هذه العبادة الجليلة ثم عقبها بالجزاء فقال تعالى : ﴿ **تَتَجافَى جُنُوبُهم عَنْ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفَاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾ [السجدة : ١٦] .

ثم عقب بقوله تعالى : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة : ١٧] .

ولما أخفوا العمل واستتروا بجنح الظلام أخفى الله عزّ وجلّ لهم الأجر .

أما الأخبار فقوله ﷺ : « **أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل** »[1].

---

(١) رواه مسلم (٨/٥٥) الصيام وأبو داود (٢٤١٢) الصوم ، والترمذي (٢/٢٢٧) الصلاة ، والنسائي (٣/٢٠٧) قيام الليل .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : « كان رسول الله ﷺ يصلي ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشر ركعة ، يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة »(١).

وفي الخبر إنه ذكر عنده الرجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال ﷺ : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه »(٢).

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال رسول الله ﷺ : « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد ، فإذا استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلّا أصبح خبيث النفس كسلان »(٣).

الآثار :

كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دويّ كدويّ النحل حتى يصبح .

قيل للحسن : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً ؟ قال : « لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره » .

وقال : « إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل » .

وقال رجل لأحد الصالحين : لا أستطيع قيام الليل فصف لي دواءاً ، فقال : لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه بالليل .

---

(١) رواه البخاري (٣/٧) التهجد ، ومسلم (٦/١٦) الصلاة .
(٢) رواه البخاري (٣/٣٤) التهجد ، ومسلم (٦/٦٣ ، ٦٤) صلاة المسافرين .
(٣) رواه البخاري (٣/٣٠) التهجد ، ومسلم (٦/٦٥ ، ٦٦) صلاة المسافرين .

ويروى عن سفيان الثوري أنه قال : « حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أصبته » وقال ابن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كابدوه   فيسفر عنهم وهم هجوع
أطار الخوف نومهم فقاموا   وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وقال أبو سليمان : « أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا » .

وقال ابن المنكدر : « ما بقي من لذات الدنيا إلّا ثلاث : قيام الليل ، ولقاء الإخوان ، وصلاة الجماعة » .

* * *

٦ – الزهد في الدنيا وبيان حقارتها

الزهد : هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، وأما العلم المثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ . فمن عرف أن ما عند الله باقٍ ، وأن الآخرة خير وأبقى كما أن الجوهر خير وأبقى من الثلج . فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له ، وبقدر اليقين بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع ، وقد مدح القرآن الزهد في الدنيا وذمّ الرغبة فيها ، فقال تعالى : ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [الأعلىٰ : ١٦ – ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ **وَفَرِحُواْ بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتٰعٌ** ﴾ [الرعد : ٢٦] .

والأحاديث في ذم الدنيا وبيان حقارتها عند الله كثيرة جداً :

عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرّ بالسوق والناس كَنَفَتَيْه ، فمر بجدي أسكّ ميت فتناوله فأخذ بأذنه ، فقال : « أيكم يحب أن هذا له بدرهم » فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ؟ قال : « أتحبون أنه لكم » قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسكّ فكيف وهو ميت ؟

فقال : « والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم »[1].

وعن المستورد بن شدّاد الفهْري عن النبي ﷺ قال : « ما الدنيا في الآخرة إلّا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ فلينظر بم يرجع »[2].

وعن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء »[3].

فالزهد : هو الإعراض عن الشيء لاستقلاله ، واحتقاره ، وارتفاع الهمة عنه ، يقال : شيء زهيد أي قليل حقير .

قال يونس بن ميسرة : « ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء وأن يكون مادحك وذامّك في الحق سواء » .

ففَسَّر الزهد في الدنيا بثلاثة أشياء كلها من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح ، ولهذا كان أبو سليمان يقول : لا تشهد لأحد بالزهد .

أحدها : أن يكون العبد بما في يد الله أوثق منه بما في يد نفسه . وهذا ينشأ من صحة اليقين وقوته ، قيل لأبي حازم الزاهد : ما مالُك ؟ قال :

---

(١) رواه مسلم (٩٣/١٨) الزهد ، وأبو داود (١٨٤) الطهارة وقوله : « والناس كنفتيه » أي حوله ، وفيه أدب سير طلاب العلم مع العالم وقوله : « أسك » أي صغير الأذنين .

(٢) رواه مسلم (٩٣/١٨) الجنة وصفة نعيمها . والترمذي (١٩٩/٩) الزهد ، وابن ماجه (٤١٠٨) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٨/٩) الزهد ، وقال : صحيح الإسناد و لم يخرجاه وقال الذهبي : زكريا ضعفوه . وقال الألباني : والصواب أن الحديث صحيح لغيره فإن له شواهد تقويه وانظر شواهده في الصحيحة رقم ٩٤٣ .

« مالان لا أخشى معهما الفقر : الثقة بالله ، واليأس مما في أيدي الناس » .
وقيل له : أما تخاف الفقر ؟ فقال : « أنا أخاف الفقر ومولاي له مافي السموات ، وما في الأرض ، وما بينهما ، وما تحت الثرى ؟ » .

قال الفضيل : أصل الزهد : الرضى عن الله عزّ وجلّ ، وقال : القنوع هو الزاهد ، وهو الغني ؛ فمن حقق اليقين ، وثق بالله في أموره كلها ، ورضي بتدبيره له ، وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاءاً وخوفاً ، ووضعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة ، ومن كان كذلك كان زاهداً حقاً ، وكان من أغنى الناس ؛ وإن لم يكن له شيء من الدنيا . كما قال عمّار – رضي الله عنه – : « كفى بالموت واعظاً ، وكفى باليقين غنىً ، وكفى بالعبادة شغلاً » .

وقال ابن مسعود – رضي الله عنه – : « اليقين أن لا تُرضي الناس بسخط الله ، ولا تحسد أحداً على رزق الله ، ولا تلم أحداً على مالم يؤتك الله ، فإن رزْقَ الله لا يسوقه حرصُ حريص ، ولا يرده كراهيةُ كاره ، فإن الله بقسطه ، وعلمه ، وحكمته ، جعل الروح والفرح في اليقين والرضى ، وجعل الهمّ والحزن في السخط والشّك » .

الثاني: أن يكون العبد إذا أصيب بمصيبة في دنياه : من ذهاب مال ، أو ولد ، أو غير ذلك ، أرغب في ثواب ذلك مما ذهب منه من الدنيا أن يبقى له . وهذا أيضاً ينشأ من كمال اليقين .

قال عليّ – كرّم الله وجهه – : « من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات » .

وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة من المفاليس .

الثالث : أن يستوي عند العبد حامده وذامُّه في الحق . وإذا عظمت الدنيا

في قلب العبد اختار المدح وكره الذم ، وربما حمله ذلك على ترك كثير من الحق خشية الذم ، وعلى فعل كثير من الباطل رجاء المدح .

فمن استوى عنده حامده وذامه في الحق دلَّ على سقوط منزلة المخلوقين من قلبه وامتلائه من محبة الحق ، وما فيه رضى مولاه ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : « اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله » .

وقد مدح الله عزّ وجلّ الذين يجاهدون في سبيله ، ولا يخافون لومة لائم ، وقد ورد عن السلف روايات أخرى في تفسير الزهد .

قال الحسن : « الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال : هو أزهد مني » . وسئل بعضهم – أظنه الإمام أحمد – عمن معه مال هل يكون زاهداً ؟ قال : « إن كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه فهو زاهد » .

وقال إبراهيم بن أدهم : « الزهد ثلاثة أقسام : فزهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة .

فأما الزهد الفرض : فالزهد في الحرام ، والزهد الفضل : فالزهد في الحلال ، والزهد السلامة : فالزهد في الشبهات » .

وكل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو زاهد أيضاً ، ولكن في الآخرة .

قال رجل لأحد الصالحين : ما رأيت أزهد منك ، قال : أنت أزهد مني لقد زهدتُ في دنيا لا بقاء لها ولا وفاء ، وأنت زهدت في الآخرة ، فمن أزهد منك ؟ .

ولكن العادة جارية على تخصيص اسم الزهد على الزهد في الدنيا ، والزهد يكون فيما هو مقدور عليه ولذا قيل لابن المبارك : يا زاهد ، قال : « الزاهد هو عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها وأما أنا ففي ماذا

زهدت » .

قال الحسن البصري : « أدركت أقواماً وصحبت طوائف ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب ؛ كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يُطْوَ لَه ثوبٌ ، و لم يُنصب له قدرٌ ، و لم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً ، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط ، فإذا كان الليل ، فقيام على أقدامهم ، يفترشون وجوهَهم ، تجري دموعُهم على خُدودهم ، يُناجون ربَهم في فَكاك رقابهم ؛ كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها ، فلم يزالوا على ذلك ؛ ووالله : ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلّا بالمغفرة ؛ فرحمة الله عليهم ورضوانه » .

درجات الزهد

الدرجة الأولى :

أن يزهد في الدنيا وهو لها مُشْتَهٍ ، وقلبه إليها مائل ، ونفسه إليها ملتفتة ، ولكن يجاهدها ويكفها ، وهذا يسمى : متزهد .

الدرجة الثانية :

الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها ، بالإضافة إلى ما طمع فيه ، ولكنه يرى زهده ، ويلتفت إليه ، كالذي يترك درهماً لأجل درهمين .

الدرجة الثالثة :

أن يزهد في الدنيا طوعاً ، ويزهد في زهده ، فلا يرى أنه ترك شيئاً فيكون كمن ترك خَزَفَةً وأخذ جوهرةً .

ويمثل صاحب هذه الدرجة بمن منعه من الدخول على الملك كلبٌ على بابه ، فألقى إليه لقمةً من خبز فشغله بها ، ودخل على الملك ، ونال القرب منه فالشيطان كلبٌ على باب الله عزّ وجلّ ، يمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوحٌ ، والحجابُ مرفوعٌ ، والدنيا كلقمة فمن تركها لينال عز الملك فكيف يلتفت إليها .

* * *

ذم الدنيا

اعلم أن الذم الوارد في الكتاب والسنة راجعاً إلى زمانها الذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة ، فإن الله عزّ وجلّ جعلهما خلفة لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكوراً .

وورد في الأثر : « إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تصنعون فيهما » .

وقال مجاهد : « ما من يوم إلّا يقول : ابن آدم : قد دخلت ، عليك اليوم ولن أرجع إليك بعد اليوم فانظر ماذا تعمل فيّ ، فإذا انقضى طوى ، ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذي يقضيه يوم القيامة » .

وأنشد بعضهم :

إنَّمَا الدُّنْيَا إلى الجَنَّةِ والنَّارِ طَرِيقٌ ... والليالي متْجرُ الإنسان والأيامُ سُوقٌ

فالوقت هو رأس مال العبد ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال : سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة »[1]. فانظر إلى مُضَيع الساعات كم يفوته من النخيل .

وكان أحد الصالحين إذا أثقل الناس في الجلوس عنده يقول : « أما تريدون أن تقوموا ، إن ملك الشمس يجرها لا يفتر » .

وقال رجل لأحد العلماء : « قف أكلمك » قال : « أوقف الشمس » .

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٧).

وكذلك ليس ذم الدنيا راجعاً إلى مكان الدنيا وهو الأرض ، وما أودع فيها من جبال وبحار وأنهار ومعادن ، فإن ذلك كله من نعم الله على عباده لما لهم فيها من المنافع ، والاعتبار ، والاستدلال على وحدانية الصانع سبحانه وقدرته وعظمته ، وإنما الذم راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا ، لأن غالبها واقع على غير الوجه الذي تحمد عاقبته ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿ **اعْلَمُواْ أَنَّما الْحَيٰوة الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلاد** ﴾ [الحديد : ٢٠] .

وانقسم بنو آدم في الدنيا إلى قسمين: أحدهما: من أنكر أن للعباد داراً بعد الدنيا للثواب والعقاب وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءايٰتنا غَـٰفِلُون * أُوْلٰئِكَ مَأْوٰهُمُ النَّار بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون** ﴾ [يونس : ٧ - ٨]

وهؤلاء همهم التمتع في الدنيا واغتنام لذاتها قبل الموت كما قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَـٰمُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَّهُمْ** ﴾ [محمد : ١٢] .

والقسم الثاني : من يقر بدار بعد الموت للثواب والعقاب ، وهم المنتسبون إلى المرسلين ؛ وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات بإذن الله .

والظالم لنفسه : هم الأكثرون ، وأكثرهم واقف مع زهرة الدنيا وزينتها ، فأخذها من غير وجهها ، واستعملها في غير وجهها ، وصارت الدنيا أكبر همّه ، بها يرضى ، وبها يغضب ، ولها يوالي ، وعليها يعادي ؛ وهؤلاء أهل اللعب واللهو والزينة ، وإن كانوا يؤمنون بالآخرة إيماناً مجملاً فهم لم يعرفوا المقصود من الدنيا ، ولا أنها منزلة يتزود فيها لما بعدها .

والمقتصد : من أخذ الدنيا من وجوهها المباحة ، وأدى واجبها ، وأمسك

لنفسه الزائد على الواجب يتوسع به في التمتع بشهوات الدنيا ، وهؤلاء لا عقاب عليهم في ذلك إلّا أنه ينقص درجاتهم كما قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : « لولا أن تنقص من حسناتي لخالفتكم في لين عيشكم ولكن سمعت الله عَيَّرَ قوماً فقال : ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا** ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

وأما السابق بالخيرات بإذن الله : فهم الذين فهموا المراد من الدنيا وعملوا بمقتضى ذلك ، فعلموا أن الله إنما أسكن عباده في الدار ليبلوهم أيهم أحسن عملاً كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الكهف : ٧] .

يعني : أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ **وإنا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً** ﴾ [الكهف : ٨] .

فاكتفى السابقون منها بما يكفي المسافر من الزاد ، كما قال النبي ﷺ : « مالي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلّا كراكبٍ استظل تحت شجرةٍ ، ثم راح وتركها »[1].

ووصى ابنَ عمر – رضي الله عنهما – ﷺ : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »[2].

ومتى نوى من تناول شهواته المباحة التقوي على طاعة الله كانت شهواته له طاعة يثاب عليها ، كما قال معاذ – رضي الله عنه – : « إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي » .

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٣/٩) الزهد وقال : حسن صحيح ، والحاكم (٣٠١/٤) الرقاق . وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ورواه أحمد (٣٩١/١) وصححه الألباني في الصحيحة بشاهده رقم ٤٣٩ .

(٢) تقدم تخريجه ص (٢٢).

قال سعيد بن جبير : « متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة ، وما لم يلهك فليس بمتاع الغرور ولكن متاع بلاغ إلى ما هو خير منه » .

وقال يحيى بن معاذ : « كيف لا أحب دنيا قُدر لي فيها قوت أكتسب به حياة ، أدرك بها طاعة ؛ أنال بها الجنة » .

وسُئل أبو صفوان الرعيني : ما هي الدنيا التي ذمّها الله في القرآن والتي ينبغي للعاقل أن يتجنبها ؟ ، فقال : « كل ما أصبت في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم ، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس منها » .

وقال الحسن : « نعمت الدار الدنيا كانت للمؤمن ؛ وذلك أنه عمل قليلاً وأخذ زاده منها للجنة ، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق ، وذلك أنه ضيع لياليه وكان زاده منها إلى النار » .

قال عون بن عبد الله : « الدنيا والآخرة في القلب ككفتي الميزان ما ترجح إحداهما تخف الأخرى » .

وقال وهب : « إنما الدنيا والآخرة كرجل له امرأتان إذا أرضى إحداهما أسخط الأخرى » .

وقال أبو الدرداء : « لئن حلفتم لي على رجل أنه أزهدكم لأحلفن لكم أنه خيركم » .

وقال رجل للتابعين : « لأنتم أكثر عملاً من أصحاب رسول الله ﷺ ولكنهم كانوا خيراً منكم ؛ كانوا أزهد في الدنيا » .

* * *

أضرار حب الدنيا

حب الدنيا هو الذي عمّر النار بأهلها ، والزهد في الدنيا هو الذي عمّر الجنة بأهلها ، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بالخمر ، فصاحبه لا يفيق إلّا في ظلمة اللحد ، قال يحيى بن معاذ : « الدنيا خمر الشيطان ، من سكر منها فلا يفيق إلّا في عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين » . وأقل ما فيها أنه يلهي عن حب الله وذكره ، ومن ألهاه ماله فهو من الخاسرين ، وإذا لهى القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان ؛ وصرفه حيث أراد .. ومن فقهه في الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل الخير .

ويقول ابن مسعود – رضي الله عنه –: « ما أصبح أحد في الدنيا إلّا ضيف وماله عارية ، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة » .

قالوا : وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ، ومفسداً للدين من وجوه :

أحدها :– أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله ، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقّر الله .

ثانيها :– أن الله لعنها ، ومقتها ، وأبغضها ، إلّا ما كان له فيها ، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة ، ومقته وغضبه .

وثالثها :– أنه إذا أحبها صيّرها غايته ، وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة ، فعكس الأمر وقلب الحكمة ، فها هنا أمران : أحدهما : جعل الوسيلة غاية ، والثاني : التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا ، وهذا شر معكوس من كل وجه ، وقلب منكوس غاية

الانتكاس ، وهذا هو الذي انطبق عليه : حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة ، قوله تعالى : ﴿ مَن كانَ يُريدُ الحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوَلٰئكَ الَّـذِينَ لَيْسَ لَهُمْ في الآخِرَةِ إلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَباطِلٌ مَّا كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٥ - ١٦] .

والأحاديث كثيرة ، منها حديث أبي هريرة في الثلاثة الذين هم أول من تسعّر بهم النار : الغازي ، والمتصدق ، والقارىء ؛ الذين أرادوا بذلك الدنيا ، والنصيب وهو في مسلم[1] .

فانظر محبة الدنيا كيف حَرَمَتْ هؤلاء من الأجر ، وأفسدت عليهم عملهم ، وجعلتهم أول الداخلين إلى النار .

رابعاً :- أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة باشتغاله عنه بمحبوبه . والناس هاهنا مراتب : فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه ، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات ، ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها - وإن قام بغيره - ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي ؛ فيفرط في وقته وفي حقوقه ، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب ، وتفريغه لله عند أدائه ، فيؤديه ظاهراً لا باطناً ، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها ، هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد ، وهو تفريغ القلب لحب الله ، ولسانه لذكره ، وجمع قلبه على لسانه ، وجمع لسانه وقلبه على ربه ، فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد ، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا .

خامساً :- أن محبتها تجعلها أكبر همّ العبد ، وقد روى الترمذي من

---

(١) رواه مسلم (١٣/٥٠ ، ٥١) الجهاد والسير .

حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همّه ، جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلّا ما قدر له »[1] .

سادسها :– أن محبها أشد الناس عذاباً بها ، وهو معذب في دوره الثلاث : يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها ، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها ، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً ، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه ، فهذا أشد الناس عذاباً في قبره ، يعمل الهمُّ والحزنُ والغم والحسرة في روحِه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه .

والمقصود : أن محب الدنيا يعذب في قبره ، ويعذب يوم لقاء ربه قال تعالى: **﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾** [التوبة : ٥٥] .

قال بعض السلف : « يعذبهم بجمعها ، وتزهق أنفسهم بحبها ، وهم كافرون بمنع حق الله فيها » .

وسابعها :– أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق ، وأقلهم عقلاً ، إذ آثر الخيال على الحقيقة ، والمنام على اليقظة ، والظل الزائل على النعيم الدائم ، والدار الفانية على الدار الباقية ، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي أحلام نوم ، أو كظلّ زائل ، إن اللبيب بمثلها لا يخدع .

(١) رواه الترمذي (٢٥٨٣ تحفة) صفة القيامة وسكت عنه وقال الألباني : وهو إسناد ضعيف لكنه حسن فى المتابعات وله شاهد عند ابن ماجه وابن حبان : وهو فى الصحيحة رقم ٩٤٩ .

وكان بعض السلف يتمثل هذا البيت :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغْتِرَاراً بِظِلٍ زائلٍ حمق

قال يونس بن عبد الأعلى : « ماشبهت الدنيا إلّا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب ، فبينما هو كذلك انتبه » .

وأشبه الأشياء بالدنيا : الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه . وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه ، والله سريع الحساب . وأشبه الأشياء بها : عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخَبر ، غدّارة بالأزواج ، تزينت للخطّاب بكل زينة ، وسترت كل قبح ، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها ، فطلب النكاح ، فقالت : لا مهر إلّا فقْد الآخرة ، فإننا ضرتان ، واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح ، فآثر الخُطّاب العاجلة ، وقالوا : ما على مَن واصل حبيبته مِن جناح ، فلما كشف قناعها ، وحل إزارها ، إذا كلُ آفةٍ وبلية ، فمنهم من طلق واستراح ، ومنهم من اختار المقام ، فما استتمت ليلة عرسه إلّا بالعويل والصياح .

تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق ، بحي على غير الفلاح ، فقام المجتهدون والمصلون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالرواح ، وسروا ليلهم ، فلم يحمد القوم السرى عند الصباح ، طاروا في صيدها ، فما رجع أحد منهم إلّا وهو مكسور الجناح ، فوقعوا في شبكتها ، فأسلمتهم للذُبَّاح .

❋ ❋ ❋

٧ – أحوال النفس ومحاسبتها

اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الربّ ، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلّا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها ، والظفر بها .

فإن الناس على قسمين : قسمٍ ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته ، وصار طوعاً لها تحت أوامرها . وقسمٍ ظفروا بنفوسهم فقهروها فصارت طوعاً لهم ، منقادة لأوامرهم .

قال بعض العارفين : انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم ، فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح ، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك ، قال الله تعالى : **﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءاثَرَ الحَيَوٰةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾** [النازعات : ٣٧ – ٤٠] .

والنفس تدعو إلى الطغيان ، وإيثار الحياة الدنيا ، والربّ يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى ، والقلبُ بين الداعيين ، يميل إلى هذا الداعي مرة ، وإلى هذا مرة ، وهذا موضع المحنة والابتلاء ، وقد وصف الله سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات : المطمئنة ، واللوامة ، والأمّارة بالسوء ، فاختلف الناس : هل النفس واحدة وهذه أوصاف لها ، أم للعبد ثلاثة أنفس ؟.

فالأول قول الفقهاء والمفسرين ، والثاني قول كثير من أهل التصوف ،

والتحقيق : أنه لا نزاع بين الفريقين ، فإنها واحدة باعتبار ذاتها وثلاثة باعتبار صفاتها .

النفس المطمئنة :

إذا سكنت النفس إلى الله عزّ و جلّ واطمأنت بذكره ، وأنابت إليه ، واشتاقت إلى لقائه ، وأنست بقربه ؛ فهي مطمئنة ، وهي التي يقال لها عند الوفاة .

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : ٢٧ — ٢٨] .

قال ابن عباس — رضي الله عنه —: المطمئنة المصدقة ، وقال قتادة : هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله ، وصاحبها يطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله — ﷺ — ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعده من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً . ثم يطمئن إلى قدر الله عزّ و جلّ فيسلم له و يرضى ، فلا يسخط ، ولا يشكو ، ولا يضطرب إيمانه ؛ فلا يأسى على ما فاته ، ولا يفرح بما آتاه ، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه ، وقبل أن يخلق ؛ قال تعالى : **﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾** [التغابن : ١١] .

قال غير واحد من السلف : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالاً وإخلاصاً ونصحاً ، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ، ولا تقليداً ، ولا يساكن شبهة تعارض خبره ، ولا شهوة تعارض أمره ، بل إذا مرّت به أنزلها منزلة الوساوس التي

لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها ، فهذا كما قال النبي ﷺ : « صريح الإيمان »[1] . وكذلك يطمئن من قلق المعصية ، وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها .

فإذا إطمأن من الشكّ إلى اليقين ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى الذكر ، ومن الخيانة إلى التوبة ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن العجز إلى الكيس ، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات ، ومن التيه إلى التواضع ، فعند ذلك تكون نفسه مطمئنة .

وأصل ذلك كله هي اليقظة ؛ التي كشفت عن قلبه سِنَةَ الغفلة ، وأضاءت له قصور الجنة ، فصاح قائلاً :

أَلَا يَا نفْسُ وَيْحَكِ سَاعِدِينِي ... بِسَعْيٍ مِنْكِ فِي ظُلَمِ اللَّيَالِي
لَعَلَّكِ فِي القِيَامَةِ أَنْ تَفُوزِي ... بِطِيبِ العَيْشِ فِي تِلْكَ العَلَالِي

فرأى في ضوء هذه اليقظة ما خلق له ، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار ، ورأى سرعة انقضاء الدنيا ، وقلة وفائها لبنيها وقتلها لعشاقها ، وفعلها بهم أنواع المثلات ، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلاً : ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦] .

فاستقبل بقية عمره مستدركاً ما فات ، محيياً ما أمات ، مستقبلاً ما تقدم

---

(١) رواه مسلم (١٥٣/٢) الإيمان ولفظه عن أبي هريرة قال : جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه . إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال : «وقد وجدتموه ؟» قالوا : نعم . قال : «ذاك صريح الإيمان» .

وروى مسلم كذلك عن ابن مسعود قال : سئل النبي ﷺ عن الوسوسة قال : « تلك محض الإيمان » .

قال النووي : استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشك – شرح النووي على صحيح مسلم (١٥٤/٢) .

له من العثرات ، منتهزاً فرصة الإمكان – التي إن فاتت فاته جميع الخيرات ، ثم يلحظ في نور تلك اليقظة وفور نعمة ربه عليه ، ويرى أنه آيسٌ من حصرها وإحصائها ، عاجزٌ عن أداء حقها ، ويرى في تلك اليقظة عيوب نفسه ، وآفات عمله ، وما تقدم له من الجنايات ، والإساءات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات ، فتنكسر نفسه ، وتخشع جوارحه ، ويسير إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ، ومطالعة جناياته ، وعيوب نفسه ، ويرى أيضاً في ضوء تلك اليقظة عزَّة وقته ، وخطره ، وأنه رأس مال سعادته فيبخل به فيما لا يقربه إلى ربه ، فإن في إضاعته الخسران والحسرة ، وفي حفظه الربح والسعادة .

فهذه آثار اليقظة وموجباتها ، وهي أول منازل النفس المطمئنة التي ينشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة .

النفس اللوامة :

قالت طائفة : هي التي لا تثبت على حال واحدة ، فهي كثيرة التقلب والتلون ، فتذكر وتغفل ، وتقبل وتعرض ، وتحب وتبغض ، وتفرح وتحزن ، وترضى وتغضب ، وتطيع وتتقي .

وقالت أخرى : هي نفس المؤمن ، قال الحسن البصري : إن المؤمن لا تراه إلّا يلوم نفسه دائماً يقول : ما أردت هذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان هذا أولى من هذا ؟ أو نحو هذا الكلام .

وقالت أخرى : اللوم يوم القيامة ؛ فإن كلَّ أحدٍ يلوم نفسه إن كان مسيئاً على إساءته ، وإن كان محسناً على تقصيره .

يقول الإمام ابن القيم : وهذا كله حق .

واللوامة نوعان : لوامة ملومة ، ولوامة غير ملومة .

ـــ اللوامة الملومة : هي النفس الجاهلة ، الظالمة ، التى يلومها الله وملائكته .

ـــ اللوامة غير الملومة : وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله – مع بذله جهده – فهذه غير ملومة وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله . واحتملت ملام اللوام في مرضاته ، فلا تأخذها في الله لومة لائم ، فهذه قد تخلصت من لوم الله ، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ، ولم تحتمل في الله ملام اللوام ، فهي التي يلومها الله عزّ و جلّ .

النفس الأمَّارة بالسوء :

وهذه النفس المذمومة ، فإنها تأمر بكل سوء ، وهذا من طبيعتها ، فما تخلَّص أحد من شرها إلّا بتوفيق الله ، كما قال تعالى ، حاكياً عن امرأة العزيز : **﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِيٓ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوء إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾** [يوسف : ٥٣] .

وقال عزّ وجلّ : **﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أحدٍ أَبَداً ﴾** [النور : ٢١] .

وكان ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة : « إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا »[٣] . فالشرُ كامنٌ في النفس ، وهو يوجب سيئات الأعمال ، فإذا خلَّى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها ، وما تقتضيه من سيئات الأعمال ، وإن وفقه الله وأعانه نجا من ذلك كله .

فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . وخلاصة القول : إن النفس واحدة تكون : أمارة ، ثم لوامة ، ثم مطمئنة

---

(١) رواه أبو داود (٢١١٨) النكاح ، وقال الألباني : صحيح ، وانظر رسالته : خطبة الحاجة للألباني حفظه الله .

وهي غاية كمالها وصلاحها .

والنفس المطمئنة قرينها الملك ، يليها ، ويسددها ، ويقذف فيها الحق ، ويرغبها فيه ، ويريها حسنَ صورته ، ويزجرها عن الباطل ، ويزهدها فيه ، ويريها قبح صورته ، وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من عند النفس المطمئ
وأما النفس الأمارة فجُعل الشيطانُ قرينُها ، وصاحبُها الذي يليها ، فهو يَعِدها ، ويمنيها ، ويقذف فيها الباطل ، ويأمرها بالسوء ، ويزينه لها ، ويطيل في الأمل ، ويريها الباطل في صُورةٍ تقبلها وتستحسنها .

فالنفس المطمئنة والملك يقتضيان من النفس المطمئنة : التوحيد ، والإحسان ، والبر والتقوى ، والتوكل ، والتوبة ، والإنابة ، والإقبال على الله ، وقصر الأمل ، والاستعداد للموت وما بعده .

والشيطانُ وجندهُ من الكفرة يقتضيان من النفس الأمَّارة ضد ذلك وأصعب شيء على النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان ومن الأمارة ، فلو وصل منها عمل واحد لنجا به العبد ، ولكن أبت الأمّارة والشيطان أن يَدَعا له عملاً واحداً يصل إلى الله ، كما قال بعض العارفين بالله وبنفسه « والله لو أعلم أن لي عملاً واحداً وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يَقْدُمُ على أهله » ، وقال عبد الله بن عمر – رضي الله عنه –: « لو أعلم أن الله قبل مني سجدةً واحدة لم يكن غائبٌ أحبَّ إلي من الموت » .

وقد انتصبت الأمّارة في مقابلة المطمئنة ، فكلما جاءتْ به تلك من خير ضاهتْها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تُفسدَه عليها ، وتريَه حقيقة الجهادِ في صورةِ تقتيل النفس ، وتنكح الزوجة ، ويصير الأولاد يتامى ، ويقسم المال ، وتريه حقيقة الزكاة والصدقة في صورة مفارقة المال ونقصه ، وخلو اليد منه ، واحتياجه إلى الناس ، ومساواته للفقير .

محاسبة النفس

علاج استيلاء النفس الأمارة بالسوء على قلب المؤمن محاسبتها والتضييق عليها وسؤالها عن كل قول وعمل .

قال الحسن : « المؤمن قوام على نفسه ؛ يحاسب نفسه لله ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ؛ وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة » .

إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول : والله إني لأشتهيك ، وإنك لمن حاجتي ، ولكن والله ما من حيلة إليك ، هيهات حيل بيني وبينك ، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ؟! مالي ولهذا ؟ ! والله لا أعود إلى هذا أبداً . إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن ، وحال بين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كله .

قال مالك بن دينار : « رحم الله عبداً قال لنفسه : ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمّها ، ثم خَطَمَها ، ثم ألزمها كتاب الله عزّ و جل ؛ فكان لها قائداً » .

فحق على الحازم المؤمن بالله وباليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها ، وخطراتها ، فكل نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد ، فإضاعة هذه الأنفاس ، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه

خسرانٌ عظيم ، لا يسمح بمثله إلّا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً ، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن . قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً** ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

ومحاسبة النفس نوعان : نوع من قبل العمل ونوع بعده :

أما النوع الأول : فهو أن يقف عند أول همّه وإرادته ، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانُه على تركه .

قال الحسن رحمه الله : « رحم الله عبداً وقف عند همه ؛ فإن كان للّه أمضاه ، وإن كان لغيره تأخّر » .

وشرح بعضهم هذا فقال : إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال ، وهمّ به العبد ، وقف أولاً ونظر : هل ذلك العمل مقدور عليه ، أو غير مقدور ، و لا مستطاع ، فإن لم يكن مقدوراً لم يقدم عليه ، وإن كان مقدوراً عليه وقف وقفة أخرى ، ونظر : هل فعلهُ خير له من تركه ، أم تركه خير له من فعْله ، فإن كان الثاني تركه و لم يقدم عليه ، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة : هل الباعث عليه إرادة وجه الله عزّ و جلّ وثوابه ، أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق ، فإن كان الثاني لم يقدم ، وإن أفضى به إلى مطلوبه ؛ لئلا تعتاد النفس الشرك ، ويخفّ عليها العمل لغير الله ، فبقدر ما يخفّ عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى حتى يصير أثقل شيء عليها ، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى : ونظر هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاج إلى ذلك أم لا ؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار ؛ وإن وجده معاناً عليه فليقدم عليه فإنه منصور بإذن الله ، ولا يفوت النجاح إلّا من فوت خصلة من هذه الخصال ، وإلّا فمع اجتماعها

لا يفوته النجاح ، فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل .

والنوع الثاني : محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع :

أحدها : محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حقّ الله تعالى ؛ فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي ، وحق الله في الطاعة ستة أمور وهي :

الإخلاص في العمل ، والنصيحة لله فيه ، ومتابعة الرسول ﷺ ، وشهود مشهد الإحسان ، وشهود مِنّة الله عليه ، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله . فيحاسب نفسه هل وفّى هذه المقامات حقها ؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة ؟

الثاني : أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله .

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمر مباح لِمَ فعله ، وهل أراد به الله تعالى والدار الآخرة فيكون رابحاً ، أو أراد به الدنيا وعاجِلَها ؛ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به .

وآخر ما عليه الإهمال ، وترك المحاسبة ، والاسترسال ، وتسهيل الأمور وتمشيتها ، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك ، وهذه حال أهل الغرور ، يغمض الواحد عينيه عن العواقب ويتكل على العفو ، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة ، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعةُ الذنوب ، وأَنِسَ بها وعسر عليه فِطَامُها .

وجماعُ ذلك أن يحاسبَ نفسَه أولاً على الفرائض فإن تذكَّر فيها نقصاً تداركَه إما بقضاءٍ أو إصلاحٍ ، ثم يحاسبُها على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية ثم يحاسب نفسه على الغفلة ، فإن كان قد غفل عما خُلِق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى ، ثم يحاسبها بما تكلم به ، أو مشت به رجلاه ، أو بطشت يداه ،

أو سمعته أذناه ؛ ماذا أردتُ بهذا ، و لم فعلتُه ، ولمن فعلته ، وعلى أي وجه فعلته ، ويعلم أنه لا بدَّ أن يُنْشَر لكل حركةٍ وكلمةٍ ديوانان : لمن فعلتَه ؟ وكيف فعلتَه ؟ فالأول : سؤال عن الإخلاص ، والثاني : سؤال عن المتابعة ، قال الله تعالى : ﴿ لِيسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٨] .

فإذا سُئل الصادقون عن صدقهم ، وحوسبوا على صدقهم ، فما الظنُّ بالكاذبين .

فوائد محاسبة النفس

١ – الاطلاع على عيوب نفسه : ومن لم يطلع على عيوب نفسه لم يمكنه إزالته ، قال يونس بن عبيد : « إني لأجد مائة خَصْلة من خِصَال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدةً » .

وقال محمد بن واسع : « لو كان للذنوب رِيحٌ ما قدر أحدٌ أن يجلسَ إليّ » .

وعن أبي الدرداء قال : « لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون أشدّ لها مقتاً » .

٢ – أن يعرف حق الله تعالى عليه ، فإن ذلك يورثه مقت نفسه ، والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل ، يفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه ، واليأس من نفسه ، وأن النجاة لا تحصل له إلّا بعفو الله ومغفرته ورحمته ، فإن من حقه أن يطاع فلا يعصى ، وأن يُذكر فلا يُنسى ، وأن يُشكر فلا يُكفر .

* * *

٨ – الصبر والشكر

فلما كان الإيمان نصفان فنصف صبر ونصف شكر ، كان حقيقاً على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين ، وأن يجعل سيره إلى الله عز و جل في هذين الطريقين القاصدين ، ليجعله الله يوم القيامة مع خير الفريقين .

أ – الصبر

فضائله :

إن الله سبحانه جعل الصبر جواداً لا يكبو ، وصارماً لا ينبو ، وجنداً غالباً لا يهزم ، وحصناً حصيناً لا يهدم ، فهو والنصر أخوان شقيقان ، وقد مدح الله عز و جل في كتابه الصابرين ، وأخبر أنه يؤتيهم أجرهم بغير حساب ، وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز ، وفتحه المبين ، فقال تعالى : ﴿ **وَاصْبِرُوا إنَّ الله مَعَ الصابِرِينَ** ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة ، وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة ، وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطةً بالصبر واليقين فقال تعالى – وبقوله اهتدى المهتدون –: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئمَّةً يَهْدُونَ بِأمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وأخبر تعالى أن الصبر خير لأهله مؤكداً باليمين ؛ فقال تعالى : ﴿ **وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينْ** ﴾ [النحل : ١٢٦] .

وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيدُ العدو و لو كان ذا تسليط ،

فقال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّه بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى ، فقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّها الَّذِينَ ءامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[آل عمران : ٢٠٠] .

وأخبر عن محبته لأهله ، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين ، فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

وبشَّر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحَاسدون : فقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّـٰبِرِينَ الَّذِين إذا أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رٰجعُون * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥ — ١٥٧] .

وجعل الفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، لا يحظى به إلّا الصابرون ، فقال عزّ و جلّ : ﴿ إِنّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُواْ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١١] .

وخصّ في الانتفاع بآياته أهلَ الصبر ، وأهلَ الشكر ، تمييزاً لهم بهذا الحظ الموفور ، فقال في أربع آيات من كتابه جل و علا : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

[إبراهيم : ٥ — لقمان : ٣١ — سبأ : ١٩ — الشورى : ٣٣] .

والصبر آخية المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها ، وساقُ إيمانه التي لا اعتماد له إلّا عليها ، فلا إيمان لمن لا صبر له ، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف ، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف ؛ فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خَسِر الدنيا والآخرة ، ولم يحظ منها إلّا بالصفقة

الخاسرة ، فخير عيش أدركه السعداءُ بصبرهم ، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

***

معنى الصَبر وحقيقته

الصبر لغة : هو المنع والحبس ، وشرعاً فهو حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ، ونحوهما .

وقيل : هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها .

سئل عنه الجنيد فقال : « تجرع المرارة من غير تعبُّس » .

وقال ذو النون المصري : « هو التباعد عن المخالفات ، والسكونُ عند تجرعِ غُصَصِ البلية ، وإظهارُ الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة » .

وقيل : « الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب » .

وقيل : « هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى » .

ورأى أحد الصالحين رجلاً يشتكي إلى أخيه فقال له : يا هذا ، والله ما زدتَ على أن شكوت من يرحمك إلى مَن لا يرحمك .

وقيل في ذلك :

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكي الرحيمَ إلى الذي لا يَرحمُ

والشكوى نوعان : شكوى إلى الله عزّ و جلّ وهذه لا تنافي الصبر ، كقول يعقوب عليه السلام : ﴿ **إنَّما أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْني إلى الله** ﴾ [يوسف : ٨٦] .

مع قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : ٨٣] .

والنوع الثاني : شكوى المبتلي بلسان الحال أو المقال ، فهذه لا تجامع الصبر بل تضادّه وتبطله .

وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر ، ولا يناقض هذا قوله ﷺ : « وما أعطي أحدٌ عطاءاً خيراً وأوسع من الصبر »[1] . فإن هذا بعد نزول البلاء ، فساحة الصبر أوسع الساحات ، أما قبل نزوله فساحة العافية أوسع .

والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار ، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية ، فإن لم يكن للمطية خطامٌ ولا زمامٌ شردت في كل مذهب . وحُفِظَ مِن خُطَبِ الحَجَّاج : «إقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة إلى كل سوء ، فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وصرفها بزمامها عن معاصي الله ، فإن الصبرَ عن محارم الله أَيْسَرُ من الصبر على عذابه » .

والنفس لها قوتان : قوة الإقدام وقوة الإحجام ، ... فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه ، وقوة الإحجام إمساكاً عما يضره ، ومن الناس من يصبر على قيام الليل ومشقة الصيام ، ولا يصبر على نظرة محرمة ومنهم من يصبر على النظر والالتفات إلى الصور ، ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد .

وقيل : الصبر شجاعة النفس ، ومن ها هنا أخذ القائل قوله : « الشجاعة صبر ساعة » ، والصبر والجزع ضدّان ، كما أخبر سبحانه وتعالى عن أهل النار : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾
[إبراهيم : ٢١] .

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥/٣) الزكاة ، ومسلم (١٤٤/٧ ، ١٤٥) الزكاة .

أقسام الصبر باعتبار متعلقه

والصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها ، وصبر على الأقضية حتى لا يتسخطها ، وهذه الأقسام هي التي قيل فيها :

« لا بد للعبد من أمر يفعله ، ونهي يجتنبه ، وقدر يصبر عليه » .

والصبر أيضاً نوعان : اختياري واضطراري ، والاختياري أكمل من الاضطراري ، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري ، ولذلك كان صبر يوسف عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لمّا ألقَوْه في الجب .

فالإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال لأنه يتقلب بين أمرٍ يجب عليه امتثاله وتنفيذه ، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه ، وقدرٍ يجري عليه اتفاقاً ، ونعمةٍ يجب شكر المنعم بها عليه وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه ، فالصبر لازم له إلى الممات .

وكل ما يَلْقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين :

أحدهما : يوافق هواه ومراده .

والآخر : يخالفه ، وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما . أما النوع الموافق لغرضه كالصحة ، والجاه ، والمال ، فهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه :

أحدهما : أن لا يركن إليها ، ولا يغتر بها ، ولا تحمله على البطر ، والفرح

المذموم الذي لا يحب الله أهلَه .

والثاني : أن لا ينهمك في نيلها .

والثالث : أن يصبر على أداء حق الله فيها .

والرابع : أن يصبر عن صرفها من الحرام . قال بعض السلف : « البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ، ولا يصبر على العافية إلّا الصدّيقون » .

وقال عبد الرحمن بن عوف : ابتلينا بالضرّاء فصبرنا ، وابتلينا بالسرّاء فلم نصبر !! ؛ ولذلك يحذر الله عباده من فتنة المال ، والأزواج ، والأولاد ، فقال تعالى : ﴿ **يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوٰلُكُمْ وَلاَ أَولَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [المنافقون : ٩] .

أما النوع الثاني المخالف للهوى : فلا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي ؛ أو لا يرتبط أَوْلُه باختياره كالمصائب ، أو يرتبط أَوْلُه باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه .

فهاهنا ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

ما يرتبط باختياره ، وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية ، فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية ، أما في الصلاة فلما فيها من الكسل وإيثار الراحة لا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ، ورين الذنب والميل إلى الشهوات ، ومخالطة أهل الغفلة .

وأما الزكاة فلما في طبع النفس من الشح والبخل ، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعاً ، ويحتاج العبد إلى الصبر في ثلاثة أحوال :

قبل الشروع في الطاعة ؛ وذلك بتصحيح النية ، والإخلاص في الطاعة ، وحين الشروع في الطاعة ؛ وذلك بالصبر على دواعي التقصير والتفريط ، واستصحاب النية ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه .

والثالثة بعد الفراغ من الطاعة ؛ وذلك بالصبر على ما يبطلها ، فليس الشأن في الإتيان بالطاعة ، إنما الشأن في حفظها مما يبطلها ، فيصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر ، وكذلك يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية ، فإن العبد يعمل العمل سراً بينه وبين الله سبحانه ؛ فيُكْتب في ديوان السر ، فإن تحدث به نقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية ، فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل .

أما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر ، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ، ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة .

القسم الثاني :

ما لا يدخل تحت الاختيار ، وليس للعبد حيلة في دفعه كالمصائب ، وهي إما أن تكون مما لا صنع لآدميّ فيه كالموت ، والمرض ، والثاني : ما أصابه من جهة آدمي كالسبّ والضرب .

فالنوع الأول : للعبد فيه أربعة مقامات : مقام العجز ، وهو الجزع والشكوى . والثاني : مقام الصبر . والثالث : مقام الرضى ، والرابع : مقام الشكر وهو بأن يشهد البليةَ نعمةً فيشكر المبتلي عليها .

وما أصابه من جهة الناس فله فيه هذه المقامات مضافاً إليها أربعة أخر : الأول : مقام العفو . الثاني : مقام سلامة الصدر من إرادة التشفي . الثالث : مقام القدر . الرابع : مقام الإحسان إلى المسيء .

القسم الثالث :

ما يكون وروده باختياره ، فإذا تمكن منه لم يكن له اختيار ، ولا حيلة في دفعه .

* * *

الأخبار الواردة في فضيلة الصبر

عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله (إنّا للّه وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها ، إلّا أخلف الله له خيراً منها) ، قالت : فلمّا مات أبو سلمة قلتُ : أيُّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمة ، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ ... » الحديث[1] .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « من يرد الله به خيراً يصب منه »[2] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من مصيبة تصيب المؤمن إلّا كفّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها »[3] .

وعن أبي موسى – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً »[4] .

عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ – وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة – فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ، فقال :

---

(١) رواه مسلم (٦/٢٢٠ ، ٢٢١)الجنائز ، ومالك فى الموطأ (١/٢٣٦) الجنائز ، وأبو داود (٣٣٠٩) الجنائز بمعناه وابن ماجه (١٥٩٨) الجنائز .

(٢) رواه البخاري (١٠/١٠٣) المرضى ، ومالك في الموطأ (٢/٩٤١) العين .

(٣) رواه البخاري (١٠/١٠٣) المرضى ، ومسلم (١٦/١٢٩) البر والصلة .

(٤) رواه البخاري (٦/١٣٦) الجهاد ، وأبو داود (٣٠٧٥) الجنائز .

« قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه ، وعظمه ؛ ما يصدّه ذلك عن دينه ، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[1] .

الآثار : قال بعض السلف : « لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة من المفاليس » .

قال سفيان بن عيينة في قوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة : ٢٤] .

لَما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسا ، ولما أرادوا قطع رِجْل عروة ابن الزبير قالوا له : لو سقيناك شيئاً كيلا تشعر بالوجع ، فقال : إنما ابتلاني ليرى صبري أفأعارض أمره ؟! .

قال عمر بن عبد العزيز : « ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلّا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه » .

ومرض أبو بكر الصديق فعادوه فقالوا : ألا ندعو لك الطبيب، فقال : « قد رآني الطبيب ، قالوا : فأيُّ شيء قال لك ؟ فقال : قال : « إني فعّالٌ لما أريد » .

وروي أن سعيد بن جبير قال : « الصبر : اعتراف العبد لله بما أصابه منه ، واحتسابه عند الله ، ورجاء ثوابه ، وقد يجزع العبد وهو يتجلّد لا يرى منه إلّا الصبر » .

فقوله : اعتراف العبد لله بما أصابه كأنه تفسير لقوله : ﴿ **إنا لله** ﴾ ،

---

(١) رواه البخاري (٢٠٢/٧) مناقب الأنصار .

فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد ، وراجياً به ما عند الله كأنه تفسير لقوله : ﴿ **وإنا إليه راجعون** ﴾ أي نرد إليه فيجزينا على صبرنا ، ولا يضيع أجر المصيبة .

* * *

ب – الشكر

الشكر : هو الثناء على المنعم بما أَوْلاَكَهُ من معروف .

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان – لا يكون شكراً إلّا بمجموعها – وهي : الاعتراف بالنعمة باطناً ، والتحدث بها ظاهراً ، والاستعانة بها على طاعة الله . فالشكر يتعلق بالقلب ، واللسان ، والجوارح ، فالقلب للمعرفة والمحبّة ، واللسان للثناء والحمد ، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه .

وقد قرن الله سبحانه وتعالى الشكر بالإيمان ، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به ، فقال تعالى : ﴿ **مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءامَنتُمْ** ﴾ [النساء : ١٤٧] .

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال عزّ و جلّ : ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّٰكِرِينَ** ﴾ [الأنعام : ٥٣] .

وقسم الناس إلى شكور وكفور ، فأبغض الأشياء إليه الكفرُ وأهلُه ، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهلُه ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَٰهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً** ﴾ [الإنسان : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ [إبراهيم : ٧] .

فعلق سبحانه المزيد بالشكر ، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره ،

وقد وقف الله سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة ، كقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِنْ شَآءَ ﴾ [التوبة : ٢٨] .

وقال في المغفرة : ﴿ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة : ٤٠] .

وقال في التوبة : ﴿ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة : ١٥] .

وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكره كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٥] .

ولما عَرف عدُو الله إبليس قدر مقام الشكر ، وأنه من أجل المقامات وأعلاها ، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه ، فقال : ﴿ ثُمَّ لَأٰتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] .

ووصف سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ : أنه قام حتى تفطرت قدماه ، فقيل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[1] .

وعنه ﷺ قال : « إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها »[2] .

فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

(١) رواه البخاري (٤١/٣) التهجد ، ومسلم (١٦٢/١٧) صفات المنافقين ، والترمذي (٢٠٤/٢ ، ٢٠٥) ، والنسائي (٢١٩/٣) قيام الليل .
(٢) رواه مسلم (٥١/١٧) الذكر والدعاء ، والترمذي (٩/٨) الأطعمة .

في مقابلة شكره بالحمد والشكر قيد النعم وسبب المزيد ، قال عمر بن عبد العزيز : « قيدوا نعم الله بشكر الله » . وذكر ابن أبي الدنيا عن عليّ ابن أبي طالب – رضي الله عنه – أنه قال لرجل من همذان : « إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر يتعلق بالمزيد ، وهما مقرونان في قرن ؛ فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد » .

وقال الحسن : أكثروا من ذكر هذه النعم ، فإن ذكرها شكر ، وقد أمر الله نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ [الضحى : ١١] .

والله تعالى يحب أن يرى أثرُ نعمتِه على عبده ، فإنَّ ذلك شكرها بلسان الحال .

وكان أبو المغيرة إذا قيل له : كيف أصبحت يا أبا محمد ؟ قال : « أصبحنا مغرقين في النعم ، عاجزين عن الشكر ، يتحبب إلينا ربُنا وهو غنيٌّ عنا ، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون » .

وقال شريح : « ما أصيب عبدٌ بمصيبة إلّا كان لله عليه فيها ثلاث نعم : ألا تكون كانت في دينه ، وألا تكون أعظم مما كانت ، وأنها لا بد كائنة فقد كانت » .

وقال يونس بن عبيد : قال رجل لأبي تميمة : كيف أصبحت ؟ قال : « أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتُها أفضل : ذنوب سترها الله عليّ فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد ، ومودةٍ قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي » .

وعن سفيان في قوله تبارك وتعالى : ﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [القلم : ٤٤] .

قال : يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر ، وقال غير واحد : « كلّما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة » .

قال رجل لأبي حازم : ما شكر العينين يا أبا حازم ؟ فقال : إنْ رأيت بهما خيراً أعلنتَه ، وإنْ رأيتَ بهما شراً سترتَه ، قال : فما شكر الأذنين ؟ قال : إنْ سمعتَ بهما خيراً وعيتَه ، وإنْ سمعت بهما شراً دفعتَه ، قال : فما شكر اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لهما ، ولا تمنع حقاً لله هو فيهما ، قال : فما شكر البطن ؟ قال : أنْ يكون أسفله طعاماً وأعلاه علماً . قال : فما شكر الفرْج ؟ قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٥ — ٧] .

قال : فما شكر الرجْلَين ؟ قال : إن علمت ميتاً تغبطه استعملت بهما عمله ، وإن مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله ، وأما من شكر بلسانه ، ولم يشكر بجميع أعضائه ، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه ، فما ينفعه ذلك من الحر ، والبرد ، والثلج ، والمطر .

وكتب بعض العلماء إلى أخٍ له : أما بعد فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه ، فما ندري أيهما نشكر ، أجميل ما يَسَّر ، أم قبيح ما ستر ؟ !

* * *

٩ - التوكل

التوكل : هو صدق اعتماد القلب على الله عزّ و جلّ في استجلاب المصالح ودفع المضارّ في أمور الدنيا والآخرة .

قال الله عزّ و جلّ : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾

[الطلاق : ٢ - ٣] .

فمن حقق التقوى والتوكل ؛ اكتفى بذلك في مصالح دينه ودنياه .

وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً »[1] حسن صحيح

قال أبو حاتم الرازي : هذا الحديث أصلٌ في التوكل وإنه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزقُ .

وقال سعيد بن جبير : « التوكل جماع الإيمان » . وتحقيق التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدرات بها ؛ وجرت سنته في خلقه بذلك ، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب ، مع أمره بالتوكل ، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة لله ، والتوكل بالقلب عليه إيمان به ، قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ... الآية**﴾ [النساء: ٧١]

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٨/١٠) الزهد ، وقال : صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وابن ماجه (٦٤ ، ٤١) والحاكم (٣١٨/٤) الرقاق ، وقال : صحيح و لم يخرجاه ، وصححه الألباني .

قال سهل : « من طعن في الحركة يعني في السعي والكسب فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان » ، فالتوكُل حالُ النبي ﷺ والكسبُ سنتُه فمن عمل على حاله فلا يتركنّ سنته .

وقيل : « عدم الأخذ بالأسباب طعن في التشريع ، والاعتقاد في الأسباب طعن في التوحيد » .

والأعمال التي يعملها العبد ثلاثة أقسام :

أحدها : الطاعات التي أمر الله بها عباده ، وجعلها سبباً للنجاة من النار ودخول الجنّة ، فهذا لا بد من فعله ، مع التوكلِ على الله عزّ و جلّ فيه ، والاستعانةِ به عليه ، فإنه لا حول ولا قوة إلّا به ، وما شاء سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن ، فمن قصّر في شيء مما وجب عليه مِن ذلك استحق العقوبة في الدنيا والآخرةِ شرعاً وقدراً .

قال يوسف بن أسباط : « يقال اعملْ عملَ رجلٍ لا ينجيه إلّا عَمَلُه ، وتوكلْ توكل رجل لا يصيبه إلا ما كُتب له » .

القسم الثاني : ما أجرى الله العادة به في الدنيا وأمر عبادَه بتعاطيه كالأكل عند الجوع ، والشرب عند العطش ، والاستظلال من الحر ، والتدفؤ من البرد ، ونحو ذلك ؛ فهذا أيضاً واجب على المرء تعاطي أسبابه ومن قصّر فيه حتى تضرر بتركه – مع القدرة على استعماله – فهو مفرط يستحق العقوبة .

القسم الثالث : ما أجرى الله العادة به في الدنيا في الأعم الأغلب ، وقد يَخرق العادة في ذلك لمن شاء مِن عباده وهي أنواع : كالأدوية مثلاً وقد اختلف العلماء : هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوي أم تركه لمن حقق التوكل على الله ؟

فيه قولان مشهوران . وظاهر كلام الإمام أحمد أن التوكلَ لمن قَوِي عليه أفضلُ لما صحّ عن النبي ﷺ أنه قال : « يدخل الجنةَ من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ثم قال : هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون »[1] .

ومن رجح التداوي قال : إنه حال النبي ﷺ الذى كان يداوم عليه — وهو لا يفعل إلّا الأفضل — وحمل الحديث على الرق المكروهة ، التي يخشى منها الشرك ، بدليل أنه قرنها بالكي والطيرة وكلاهما مكروه .

قال مجاهد ، وعكرمة ، والنخَعي ، وغير واحد من السلف : لا يرخص في ترك السبب بالكلية إلّا لمن انقطع قلبه عن الاستشراف إلى المخلوقين بالكلية .

وسئل إسحٰق بن راهويه : هل للرجل أن يدخل المفازة بغير زاد ؟ فقال : « إن كان الرجل مثل عبد الله بن جبير فله أن يدخل المفازة بغير زاد ، وإلّا لم يكن له » .

❋ ❋ ❋

(١) رواه البخاري (١٠/١٥٥) الطب ، (٣/٨٨) الإيمان ، والترمذي (٩/٢٦٧) صفة القيامة وله زيادة : « مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثياته » ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وحسن الألباني هذه الزيادة .

١٠ - محبّة الله عَزّ وجَلّ

المحبةُ لله هي الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلّا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها كالشوق ، والأنس ، والرضى ، ولا قبل المحبة مقام إلّا وهو مقدمةٌ من مقدماتها كالتوبة ، والصبر ، والزهد ، وغيرها .

وأنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها ، وأعلاها ، وأجلها ، محبة من جبلت القلوب على محبته ، وفطرت الخليقة على تأليهه ، فإن الإله هو الذى تألهه القلوب بالمحبة ، والإجلال ، والتعظيم ، والذل له ، والخضوع ، والتعبد . والعبادة لا تصلح إلّا له وحده ، والعبادة : هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل .

والله تعالى يُحَبُّ لذاته مِن جميع الوجوه ، وما سواه فإنما يُحب تبعاً لمحبته ، وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ، ودعوة جميع الرسل ، وفطرته التي فطر عباده عليها ، وما ركب فيهم من العقول ، وما أسبغ عليهم من النعم ؛ فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة مَن أنعم عليها ، وأحسن إليها ، فكيف بمن كُل الإحسان منه ، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** ﴾ [النحل : ٥٣] .

وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنى ، وصفاته العلا ، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته .

قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّه** ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يأْتي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ في سَبِيلِ الله وَلاَ يَخافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ** ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وقد أقسم النبي ﷺ إنه : لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ، ووالده ، والناس أجمعين[١] .

وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا حتى أكون أحب إليك من نفسك »[٢] .

أي لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية .

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها ، أفليس الربّ جلَّ جلاله أولى بمحبته وعبادته من أنفسنا ؟ .

وكل ما منه إلى عبده يدعوه إلى محبته مما يحب العبد ويكره ؛ فعطاؤه ومنعه ، ومعافاته وابتلاؤه ، وقبضه وبسطه ، وعدله وفضله ، وإماتته وإحياؤه ، وبره ورحمته وإحسانه وستره ، وعفوه وحلمه ، وصبره على

(١) رواه البخاري (٥٨/١) الإيمان ، ومسلم (١٥/٢) الإيمان ، وقال الحافظ : قوله : « لا يؤمن » أي إيماناً كاملاً .

وقال القاضي عياض وابن بطال وغيرهما : المحبة ثلاثة أقسام : محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد ، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد ، ومحبة مشاكلة وإحسان كمحبة سائر الناس ، فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته .

وقال ابن بطال : ومعنى الحديث : أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين لأن به ﷺ استنقذنا من النار وهدينا من الضلال .

(٢) رواه البخاري (٥٢٣/١١) الأيمان والنذور .

عبده ، وإجابته لدعائه ، وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته ، من غير حاجة منه إليه ، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه ؛ كل ذلك داعٍ للقلوب إلى تأليهه ومحبته ، فلو أن مخلوقاً فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته ، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته ؟

فخيره إليه نازل ، وشره إليه صاعد ، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه ، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي ، وهو فقير إليه — فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته ، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه .

وأيضاً : فكل من تحبه مِن الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه ، وغرضه منك ، والله سبحانه وتعالى يريدك لك .

وأيضاً : فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك ، ولابد له من نوع من أنواع الربح ، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه ؛ فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة ، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محواً .

وأيضاً : فهو سبحانه خلقك لنفسه ، وخلق كل شيء لك في الدنيا والآخرة ، فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته ، وبذل الجهد في مرضاته .

وأيضاً : فَمَطَالِبُك — بل مطالب الخلق كلهم جميعاً — لديه ، وهو أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، أعطى عبدَه قبل أن يسأله فوق ما يؤمله ، يشكر القليل من العمل وينميه ، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ، يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل . ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، بل يحب الملحين في الدعاء ، ويحب أن يُسأل ويغضب إذا لم يُسأل ، ويستحي من عبده حيث لا يستحي

العبد منه ، ويستره حيث لا يستر نفسه ، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه ، ودعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى ، فأرسل رسله في طلبه ، وبعث إليه معهم عهده ، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه ، وقال : « من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له »[1] .

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلّا هو ، ولا يجيب الدعوات ويقيل العثرات ، ويغفر الخطيئات ، ويستر العورات ، ويكشف الكربات ، ويغيث اللهفات ، وينيل الطلبات سواه ؟

فهو أحق مَن ذُكر وأحق من شُكر ، وأحق من عُبد ، وأحق من حُمد ، وأنصر من ابتغي ، وأرأف من ملك ، وأجود من سُأل ، وأوسع من أعطى ، وأرحم من استرحم ، وأكرم من قُصد ، وأعز من التُجىء إليه ، وأكفى من تُوكِل عليه ، أرحم بعبده من الوالدة بولدها ، وأشد فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها ؛ وهو الملك لا شريك له ، والفرد لا ندّ له ، كل شيء هالكٌ إلّا وجههُ ، لن يُطاع إلّا بإذنه ، ولن يُعصى إلّا بعلمه ، يُطاع فَيشكر ، وبتوفيقه ونعمته أُطِيعَ ، ويُعصى فيعفو ويغفر وحقه أضيع ، فهو أقرب شهيد ، وأجل حفيظ ، وأوفى بالعهد ، وأعدل قائم بالقسط ؛ حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصي ، وكتب الآثار ، ونسخ الآجال ، فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية ، والغيب لديه مكشوف ، وكل أحد إليه ملهوف ، وعنت الوجوه لنور وجهه ، وعجزت العقول عن إدراك كنهه ، ودلّت الفِطَر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه ، وأشرقت لنور وجهه الظلمات ، واستنارت له الأرض والسماوات ، وصلحت عليه جميع المخلوقات ، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه

(١) رواه البخاري (٤٦٤/١٣) التوحيد : ومسلم (٣٨/٦ ، ٣٩) صلاة المسافرين والترمذي (٣٠/١٣) الدعوات ، وأبو داود (١٣٠١) الصلاة .

عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

ومحبة الله عزّ و جلّ هي حياة القلوب ، وغذاء الأرواح ، وليس للقلب لذةٌ ولا نعيمٌ ولا فلاحٌ ولا حياةٌ إلّا بها ، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورَها ، والأُذُن إذا فقدت سمعها ، بل فساد القلب – إذا خلا مَن محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق – أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح ، وهذا الأمر لا يصدق به إلّا من فيه حياة ، وما لجرح بميت إيلام .

الآثار : قال فتح الموصلي : « المحب لا يجد للدنيا لذة ، ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين » ، وقال بعضهم : « المحب طائر القلب ، كثير الذكر ، متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دأباً وشوقاً » .

وأنشد بعضهم :

وكن لربك ذا حب لتخدمه   إن المحبين للأحباب خُدّامُ

وأوصت امرأة من السلف أولادها فقالت لهم : « تعوّدوا حبّ الله وطاعته ، فإن المتقين ألفوا بالطاعة فاستوحشت جوارحُهم من غيرها ، فإن عرض لهم الملعون بمعصية مرّت المعصية بهم محتشمة فهم لها منكرون » .

وأنشد ابن المبارك :

تعصى الإله وأنت تزعم حبه   هذا لعمري في القياس شنيعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيعُ

* * *

١١ – الرضا بقضاء الله عَزّ وجَلّ

للعبد فيما يكره درجتان : درجة الرضى ، ودرجة الصبر ، فالرضا فضل مندوب إليه ، والصبر واجب على المؤمن حتم .

وأهل الرضا تارة يلاحظون حكمة المبتلي وخيرته لعبده في البلاء وأنه غير متهم في قضائه ، وتارة يلاحظون عظمة المبتلي وجلاله وكماله فيستغرقون في مشاهدة ذلك حتى لا يشعرون بالألم ، وهذا يصل إليه خواص أهل المعرفة والمحبة ، حتى ربما تلذذوا بما أصابهم لملاحظتهم صدوره من حبيبهم .

والفرق بين الرضى والصبر : أن الصبر حبس النفس وكفها عن السخط – مع وجود الألم – وتمنى زوال ذلك ، وكف الجوراح عن العمل بمقتضى الجزع ، والرضا : انشراح الصدر ، وسعته بالقضاء ، وترك زوال الألم – وإن وجد الإحساس بالألم – لكن الرضى يخففه بما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة ، وإذا قوى الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : « إن الله تعالى بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط » .

وقال علقمة في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾
[التغابن : ١١] .

هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى .

وقال النبى ﷺ : « ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام

ديناً و محمد رسولاً »[1] .

وقال النبى ﷺ : « من قال حين يسمع النداء رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ومحمد رسولاً غفرت ذنوبه »[2].

ونظَر علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – إلى عديّ بن حاتم كئيباً ، فقال : مالي أراك كئيباً حزيناً ؟ ، فقال : وما يمنعني وقد قتل ابناي وفقئت عيني ، فقال : يا عديّ من رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر ، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله .

دخل أبو الدرداء – رضي الله عنه – على رجل يموت وهو يحمد الله فقال أبو الدرداء : أصبت إن الله عزّ وجلّ إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به .

وقال أبو معاوية في قوله تعالى : ﴿ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حيَاةً طَيِّبَة** ﴾ [النحل : ٩٧] الرضا والقناعة .

قال الحسن : « من رضي بما قسم له وسِعه وبارك الله فيه ، ومن لم يرض لم يسعه ، ولم يبارك له فيه » . وقال عمر بن عبد العزيز : « ما بقي لي سرور إلّا في مواقع القدر » . وقيل له ما تشتهي ؟ فقال : « ما يقضي الله

---

(١) رواه مسلم (٢/٢) الإيمان ، والترمذي (٩١/١٠) الإيمان ، قال صاحب التجويد : معنى رضيت بالشيء : قنعت به واكتفيت به ولم أطلب معه غيره ، فمعني الحديث : لم يطلب غير الله تعالى ولم يسع فى غير طريق الإسلام ، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ ، ولا شك أن من كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه .

وقال القاضي عياض : معنى الحديث : صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه لأنّ رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه لأن من رضي أمراً سهل عليه فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذت له والله أعلم .

(٢) رواه مسلم (٨٦/٤) الصلاة، وأبو داود (٥٢١) الصلاة، والترمذي (١١/٢، ١٢).

عزّ وجلّ » .

وقال عبد الواحد بن زيد : « الرضا بابُ الله الأعظم ، وجنةُ الدنيا ، ومستراح العابدين » .

وقال بعضهم : « لن يُرى في الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى في كل حال ، فمن وهب له الرضا فقد تبلغ أفضل الدرجات » .

وأصبح أعرابي وقد ماتت له أباعر (جمع بعير) كثيرة .

فقال :

لا والذى أنا عبدٌ في عبادته   لولا شماتة أعداء ذوى إحن
ما سرني أن إبلي في مباركها   وأن شيئاً قضاه الله لم يكن

١٢ – الخوف والرجاء

الخوف والرجاء جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء ، ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد إذاً من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبل التوصل إلى الجمع بينهماوالله الموفق للخيرات الهادي لأعلى الدرجات .

١ – الرجاء

هو ارتياح القلب ؛ لانتظار ما هو محبوب عنده .

وإذا كانت الأسباب غير موجودة فاسم الغرور والحمق عليه أصدق ، وإذا كان الأمر مقطوعاً به فلا يسمى رجاء إذ لا يقال : أرجو طلوع الشمس ، ولكن يمكن أن يقال : أرجو نزول المطر .

وقد علم علماء القلوب : أن الدنيا مزرعة الأخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذور فيها ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها .

والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة هو الحصاد ، ولا يحصد أحد إلّا ما زرع ، ولا ينمو بذر إلّا من بذر الإيمان ، وقلّما ينفع إيمان مع خبث القلب ، وسوء أخلاقه ، وكما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء

صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضاً طيبة ، وألقى فيها بذراً طيباً غير عفن ولا مسوس ثم أمدّه بما يحتاج إليه في أوقاته ، ثم نقى الشوك والحشيش وكل ما يمنع نبات البذرة أو يفسده ، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة ، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، سُمّي انتظاره رجاءاً . وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا يصل إليها الماء ، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه ؛ سُمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاءاً .

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختيار العبد ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ، فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهّر قلبه من شوك الأخلاق الرذيئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره رجاءاً حقيقياً .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَـتَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

يعني أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ولكن خصّص بهم استحقاق الرجاء .

ومن كان رجاؤه هادياً له إلى الطاعة ، زاجراً له عن المعصية ، فهو رجاء صحيح ، ومن كان رجاؤه داعياً له إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور .

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور :

أحدها : محبة ما يرجوه ، الثاني : خوفه من فواته ، الثالث : سعيه في تحصيله . وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأمانيّ ، والرجاء

شيء والأماني شيء آخر .

وكل راج خائف ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ – : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إنّ سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة »[1].

***

---

(١) رواه الترمذي (١٠/٢٢٧) صفة القيامة ، وقال : حديث حسن غريب ، والحاكم (٤/٣٠٨) الرقاق ، وقال : صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، ووافقه الذهبي والألباني .

ومعنى أدلج : أي صار من أول الليل . والمعنى : أن من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفاً من القواطع والعوائق .

أخبار الرجاء

الآيات : قوله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وقوله عزّ و جلّ :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ... الآية ﴾

[الرعد : ٦] .

الأحاديث : ما ورد في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال : « لا يموت رجل مسلم إلّا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً »[١] .

وعن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –: قدم على رسول الله ﷺ سبيٌ ، فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ » قلنا : لا والله ، فقال : « الله أرحم بعبده المؤمن من هذه على ولدها »[٢] .

---

(١) رواه مسلم (٨٥/١٧) التوبة . قال النووي رحمه الله : معناه ما جاءه في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : لكل أحدٍ منزل في الجنة ومنزل في النار . فالمؤمن إذا دخل الجنة خلفه الكافر في النار لأنه استحق ذلك بكفره ومعنى فكاكك أنك كنت معرضاً لدخول النار وهذا فكاكك لأن الله تعالى قدر للنار عدداً يملؤها فإذا دخلها الكفار بذنوبهم وكفرهم صاروا فى معنى الفكاك للمسلمين ، والله أعلم .

(٢) رواه البخاري (٤٢٦/١٠) الأدب ، ومسلم (٧٠/١٧) التوبة .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ : « إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي تغلب غضبي »[1].

وفي رواية : « غلبت غضبي » ، وفي رواية : « سبقت غضبي » .

وعن أنس – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تعالى** : يا ابن آدم : إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم : لو بلغت ذنوبُك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم : لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »[2] .

قال يحيى بن معاذ : « من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصي ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمني على الله عزّ و جلّ مع الإفراط » .

ترجو النجاة و لم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجري على اليبس

---

(١) رواه البخاري (١٣/٣٨٤) التوحيد ، ومسلم (١٧/٦٨) التوبة ، والترمذي (٣٦١١ تحفة) الدعوات .

(٢) تقدم تخريجه ص (٤١).

الخـوف

الخوف : سوط الله يسوق به عباده إلى العلم والعمل لينالوا بهما القرب من الله تعالى . وهو عبارة عن : تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، والخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ، ويقيدها بالطاعات .

والخوف القاصر يدعو إلى الغفلةِ والجرأة على الذنب ، والإفراط في الخوف يدعو إلى اليأس والقنوط .

والخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته ، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ، ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعاً أو بحسب معرفته بعيوب نفسه ، ومعرفته بجلال الله تعالى : واستغنائه ، وأنه لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون ؛ تكون قوة خوفه .

فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال ﷺ : « والله إنّي لأعلمهم بالله وأشدّهم له خَشية »[1] .

وقيل للإمام الشعبي : يا عالم : قال : إنّما العالم من يخشى الله ، وذلك لقول الله عزّ و جلّ :

﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] .

---

(١) رواه البخاري (٥١٣/١٠) الأدب ، ومسلم (١٠٦/١٥) الفضائل ، وأحمد (٤٥/٦ ، ١٨١) .

وقال ابن مسعود – رضى الله عنه –: « كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً » .

ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقيل لذي النون المِصري : متى يكون العبد خائفاً ؟ قال : « إذا نزّل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام » .

وقال أبو القاسم الحكيم : « من خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه » .

وقال الفضيل بن عياض : « إذا قيل لك : هل تخاف الله فاسكت فإنك إن قلت : نعم ، كذبت ، وإن قلت : لا ، كفرت » .

والخوف يحرق الشهوات المحرمة فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سمّاً . فتحرق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل في القلب الخشوع والذلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مستوعب الهم بخوفه ، والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل إلّا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة ، والضِنّة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس بالخطرات ، والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع في مخلب سبع ضار ، لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلك ، فيكون بظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره ، فهذا حال من غلبه الخوف .

❋ ❋ ❋

فضيلة الخوف

جمع الله عزّ وجلّ لأهل الخوف الهدى ، والرحمة ، والعلم ، والرضوان ؛ فقال تعالى : ﴿ **هُدى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٥٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ **رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ [البينة : ٨] .

وقد أمر الله عزّ وجلّ بالخوف ، وجعله شرطاً في الإيمان ؛ فقال عزّ وجلّ : ﴿ **وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه .

وقال رسول الله ﷺ : « إن رجلاً حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً وأوقدوا فيه ناراً، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت ، فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يوماً راحاً فأذروه في اليم ففعلوا فجمعه الله فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك فغفر الله له »(١).

---

(١) رواه البخاري (٦/٤٩٤) أحاديث الأنبياء ، ومسلم (١٧/٧٠) والنسائي (٤/١١٣) الجنائز وابن ماجه (٣٤٣٢) الزهد ، وأحمد (٢/٢٦٩) .

قال ﷺ : « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع »[1].

قال الفضيل بن عياض : « من خاف الله دلّه الخوف على كل خير » .

قال الشبلي : « ما خفت الله يوماً إلّا رأيت له باباً من الحكمة والعبرة » .

وقال يحيي بن معاذ : « ما من مؤمن يعمل سيئة إلّا ويلحقها جنتان : خوف العقاب ، ورجاء العفو » .

وقال الحسن البصري : إن المؤمنين قوم ذلت منهم – والله – الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وإنهم والله الأصحاء ، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الخوف ، أما – والله – ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم فى قلوبهم شيء طلبوا به الجنة إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله عليه نعمة في غير مطعم أو شرب فقد قل علمه وحضر عذابه » .

* * *

(١) رواه الترمذي (١٣٠/٧) فضائل الجهاد ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني .

الأخبَار في الخوف

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧ – ٦١] .

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ؟ فقال : « لا يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ، ويصلون ، ويتصدقون ويخافون ألّا يتقبل منهم ، أولئك يسارعون في الخيرات »[1].

عن أنس – رضي الله عنه – قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، فقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين . وفي رواية : بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء ، فخطب ، فقال : « عرضت علي الجنة والنار فلم أر كاليوم من الخير والشر ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه

---

(١) رواه الترمذي (٤/١٢) التفسير وابن ماجه (٤١٩٨) والحاكم (٣٩٤/٢) التفسير، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وفي سنده انقطاع وله شاهد عند ابن جرير، وانظر جامع الأصول (٢٥٤/٢) وصححه الألباني .

غطوا رؤوسهم ولهم خنين .[1].

ومعنى الحديث : لو أنكم علمتم ما أعلمه من عظمة الله عزّ وجلّ ، وانتقامه ممن يعصيه ، لطال بكاؤكم وحزنكم وخوفكم مما ينتظركم ، ولما ضحكتم أصلاً ، فالقليل هنا بمعنى المعدوم ، وهو مفهوم من السياق .

وروت السيدة عائشة – رضي الله عنها – : أن رسول الله ﷺ كان إذا تغّير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج ، كل ذلك خوفاً من عذاب الله[2].

وروى عبد الله بن الشِخير : أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المِرجَل[3].

ومن تأمل أحوال الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – ومن بعدهم من الصالحين من سلف هذه الأمة ؛ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف ، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن .

فهذا الصديق – رضي الله عنه – يقول : وددت أني شعرة في جنب عبد

(١) رواه البخاري (٣١٩/١١) الرقاق ، والترمذي (١٩٤/٩) الزهد .
والخنين : هو البكاء مع غنة بانتشار الصوت من الأنف .

(٢) رواه البخاري (٣٤٧/٦) بدء الخلق بمعناه ومسلم (١٩٦/٦) الاستسقاء .

(٣) رواه أبو داود (٨٩٠) الصلاة بلفظ الرحى ، والنسائي (١٣/٣) والسهو ، وأحمد (٢٥/٤ ، ٢٦) وصححه الألباني .
وقال السيوطي : « أزيز » : أي خنين من الجوف وهو صوت البكاء وهو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء « كأزيز المرجل » وهو بالكسر : الإناء الذي يغلي فيه الماء سواء كان من حديد أو صفيح أو حجارة أو خزف – هامش (١٣/٣) النسائي .
وقال في المرقاة : وفي الحديث دليل على أن البكاء لا يبطل الصلاة سواء ظهر منه حرفان أم لا واستدل على جواز البكاء في الصلاة بقوله تعالى : ﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً** ﴾ عون المعبود (١٧٣/٣) .

مؤمن ، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عزّ وجلّ .

وهذا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قرأ سورة الطور حتى بلغ : ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ** ﴾ بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه ، وقال لابنه وهو يموت : ويحك ضع خدي على الأرض عساه يرحمني ثم قال : ويل أمي إن لم يغفر لي – ثلاثاً – ثم قضى ، وكان يمر بالآية في ورده بالليل تخيفه فيبقى في البيت أياماً يعاد يحسبونه مريضاً ، وكان في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء .

وقال له ابن عباس : « مصّر الله بك الأمصار ، وفتح بك الفتوح ، وفعل » ، فقال : « وددت أن أنجو لا أجر ولا وزر » .

وهذا عثمان بن عفّان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبلّ لحيته ، قال : « لو أنني بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيتهما أصير لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير » .

وهذا أبو الدرداء – رضي الله عنه – كان يقول : « لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت ؛ ما أكلتم طعاماً على شهوة ، ولا شربتم شراباً على شهوة أبداً ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون به ، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل » .

وكان ابن عباس – رضي الله عنهما – أسفل عينيه مثل الشراك البالي من كثرة الدموع .

وقال عليّ – كرم الله وجهه – وقد سلم من صلاة الفجر ، وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : « لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزي ؛ قد باتوا سجّداً وقياماً يتلون كتاب الله ، يراوحون بين جباههم

وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ، ذكروا الله تمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم ، والله فكأني بالقوم باتوا غافلين » .
ثم قام فما رؤي بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم .

وقال موسى بن مسعود : « كنا إذا جلسنا إلى سفيان كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه » .

ووصف أحدهم الحسن فقال : « كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه ، وإذا جلس فكأنه أسير أمر بقطع رقبته ، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلّا له » .

وروى أن زرارة بن أبي أوفى صلّى بالناس الفجر بسورة المدثر ، فلّما قرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿ **فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَومَئِذٍ يَومٌ عَسِيرٌ** ﴾ أخذته شهقة فمات .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : « ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فوالذي نفسي بيده : لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه » .

***

١٣ - التوبة

التوبة من الذنوب بالرجوع إلى ستّار العيوب ، وعلّام الغيوب ، مبدأُ طريق السالكين ، ورأسُ مال الفائزين ، وأول إقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين .

ومنزل التوبة أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات ، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به ، واستصحبه معه ، ونزل به ، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَتُوبُواْ إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور : ٣١] .

وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان ، وخيارَ خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم ، وجهادهم ، ثم علق الفلاحَ بالتوبة وأتى بكلمة « لعل » إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلّا التائبون جعلنا الله منهم ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الحجرات : ١١] .

فقسم العباد إلى تائب وظالم وليس ثم قسم ثالث . وأوقع اسم الظالم على من لم يتب ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »[١].

والتوبة هي رجوعُ العبد إلى الله ومفارقتهُ لصراط المغضوب عليهم

(١) تقدم تخريجه ص (٤١).

والضآلين .

وشرائطُ التوبة ثلاثة : إذا كان الذنب في حق الله عزّ وجلّ – وهي : الندم والإقلاع ، والعزم على عدم العودة .

فأما الندم فإنه لا تتحقق التوبة إلّا به إذ مَن لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به وإصراره عليه ، وفي المسند : « الندمُ توبة »[1] وأما الإقلاعُ فتستحيل التوبةُ مع مباشرة الذنب .

والشرط الثالث هو : العزم على عدم العودة ويعتمد أساساً على إخلاص هذا العزم والصدق فيه ، وشرَط بعض العلماء عدم معاودة الذنب ، وقال : متى عاد إليه تبينّا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة والأكثرون على أن ذلك ليس شرطاً ، أما إذا كان الذنب متضمناً لحق آدمي فعلى التائب أن يصلح ما أفسد ، أو يسترضي مَنْ أخطأ في حقه ، لما ثبت[2] عن النبي – ﷺ – أنه قال : « من كان لأخيه عنده مظلمة من مال ، وعِرض فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلّا الحسنات والسيئات » .

فهذا الذنب يتضمن حقين : حقّ لله وحقّ لآدمي ، فالتوبة منه بتحلل الآدمي لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه .

وهناك بعض التوبات الخاصة ، نذكر منها بعون الله تعالى ما يلي : إذا كانت المظلمة بقدح في الآدمي بِغِيبة ، أو بقذف ، فهل يُشتَرط إعلامُه ؟

مذهبُ أبي حنيفة ومالك اشترطوا الإعلام ، واحتجوا بالحديث السابق . والقول الآخر : أنه لا يشترط الإعلام ، بل يكفي توبته بينه وبين الله ، وأن يذكر المغتاب ، أو المقذوف في مواضع غيبته ، أو قذفه بضد ما ذكره به ،

---

(١) رواه أحمد (٣٧٦/١) ، والحاكم (٢٤٣/٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .
(٢) رواه البخاري (١٠١/٥) المظالم ، والترمذي (٢٥٤/٩) صفة القيامة .

ويستغفر له ، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، احتج لذلك بأن إعلامه مفسدة مَحْضَة لا تتضمن مصلحة ، وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه فضلاً عن أن يوجبه أو يأمر به .

أما توبة مَن اغتصب مالاً فعليه ردُّ هذا المال إلى أصحابه ، فإن تعذر عليه ردُّه لجهله بأصحابه ، أو لانقراضهم ، أو لغير ذلك فعليه أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها ، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق كان لهم الخيارُ بين أن يُجيزوا ما فعل ، وتكون أجورها لهم وبين ألّا يُجيزوا ويأخذوا من حسناته بقدر أحوالهم ويكون ثواب تلك الصدقة له إذ لا يُبطِل الله سبحانه ثوابها .

فقد رُوي أن ابن مسعود – رضي الله عنه – اشترى من رجل جارية ودخل يزن له الثمن فذهب ربّ الجارية فانتظره حتى يئس من عودته فتصدق بالثمن ، وقال : اللهم هذا عن رب الجارية ، فإن رضي فالأجر له وإن أبى فالأجر لي وله من حسناتي بقدره .

وأما توبة من عاوض غيره معاوضةً محرَّمة وقبض العِوَض كبائع الخمر والمغنِّي وشاهد الزور ثم تاب والعوضُ بيده : فقالت طائفة : يرده إلى مالكه إذ هو عينُ ماله ولم يقبضه بإذن الشارع ولا حصل لربه في مقابلته نفعٌ مباح ، وقالت طائفة – بل وهو أصوب القولين – : بل توبته بالتصدق به وكيف يرد إلى دافعه مالاً استعان به على معاصي الله ؟ وهكذا توبة مَن اختلط مالهُ الحلالُ بالحرام وتعذر عليه تمييزُه أن يتصدق بقدر الحرام ويُطيّب باقي ماله والله أعلم .

مسألة : إذا تاب العبد من الذنب هل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حَطّه عنها الذنبُ أو لا يرجع إليها ؟

قالت طائفة : يرجع إلى درجته لأن التوبة تَجُبُّ الذنب بالكلية وتُصَيِّره

كأن لم يكن .

وقالت أخرى : لا يعود إلى درجته وحاله لأنه لم يكن في وقوف ، وإنما كان في صعود ، فبالذنب صار في هبوط ، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعداً به للترقي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : — والصحيح : أن مِن التائبين مَن لا يعود إلى درجته ، ومنهم من يعود إلى أعلى منها فيصير خيراً مما كان قبل الذنب ، وكان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، وهنا مَثَلٌ مضروب : رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمْن فهو يعدو مرة ويمشي أخرى ، ويستريح تارة وينام أخرى فبينما هو كذلك إذ عرض له في سيره ظِلٌّ ظَليل ، وماء بارد ومَقيل ، وروضة مُزْهِرة ، فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن فنزل عليها ، فوثب عليه منها عدو فأخذه وقيده ومنعه عن السير ، فعاين الهلاك وظن أنه منقطع به ، وأنه رِزْقُ الوحوش والسِّباع ، وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذي يؤمه ، فبينما هو على ذلك تتقاذفه الظنون ، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر فحلّ كتافه وقيوده ، وقال له : اركب الطريق واحذر هذا العدو فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد ، واعلم أنك ما دمت حاذراً منه متيقظاً له لا يقدر عليك فإذا غفلت وثب عليك ، وأنا متقدمك إلى المنزل وفرط لك فاتبعني على الأثر . فإذا كان هذا السائر كَيّساً فَطِناً لَبيباً حاضرَ الذِّهْن والعقل استقبل سيره استقبالاً آخر أقوى من الأول ، وأتم واشتد حذره وتأهب لهذا العدو ، وأعدّ له عدته ، فكان سيره الثاني أقوى من الأول وخيراً منه ووصوله إلى المنزل أسرع ، وإن غفل عن عدوه ، وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد ، عاد كما كان ، وهو مُعرض لما عرض له أولاً ، وإن أورثه ذلك توانياً في سيره وفتوراً ، وتذكراً لِطيبِ مَقِيله وحُسْنِ ذلك الرَّوْضِ أو عذوبةِ مائهِ لم يَعُد إلى مثل سيره ونقص عمّا كان .

التوبة النصوح

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ ﴾ [التحريم : ٨] .

والنصحُ في التوبة : هو تخليصُها من كل غِش و نقص و فساد . قال الحسن البصري : « هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مُجْمِعاً على أن لا يعود فيه » . وقال الكلبي : « أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويُمسك بالبدن » . وقال سعيد بن المسيَّب : « توبةً نصوحاً تنصحون بها أنفسكم » .

قال ابنُ القيّم : « النصحُ في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء :

الأول : تعميم الذنوب واستغراقُها بها بحيث لا تدع ذنباً إلّا تناولته .

الثاني : إجماع العزم والصدق بكلتيه عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلّوم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها .

الثالث : تخليصُها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها ووقوعها لمَحضْ الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده لا كمن يتوب لحفظ حاجته وحرمته ومنصبه ورياسته أو لحفظ قوته وماله أو استدعاء حَمْد الناس أو الهرب من ذمهم أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عزّ و جلّ .

فالأول : يتعلق بما يتوب منه ، والأوسط : يتعلق بذات التائب ، والثالث : يتعلق بمن يتوب إليه ، فنُصْحُ التوبة : الصدقُ فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها ، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب وهي أكمل ما يكون من التوبة » .

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها وتوبة منه بعدها فتوبته بين توبتين من ربه سابقة ولاحقة فإنه تاب عليه .

أولاً : إذناً وتوفيقاً وإلهاماً ، فتاب العبد . فتاب الله عليه .

ثانياً : قبولاً وإثابة وذلك لقوله عزّ و جلّ : ﴿ **وَعَلَى الثَّلَٰثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [التوبة : ١١٨] .

فأخبر سبحانه : أن توبته عليهم سبقت توبتهم وأنها هي التي جعلتهم تائبين فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم وهذا القَدْرُ من سر اسمَيْه : « **الأولُ والآخِرُ** » فهو المعد والممد ومنه السبب والمسبب ، والعبد تواب ، والله تواب ، فتوبة العبد : رجوعه إلى سيده بعد الأباق ، وتوبة الله نوعان : إذن وتوفيق وقبول وإمداد .

والتوبة لها مبدأ ومنتهى ، فمبدؤها : الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم الذي أمرهم بسلوكه بقوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

ونهايتها : الرجوع إليه في الميعاد وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته ، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب ، قال الله عز و جل : ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً** ﴾ [الفرقان : ٧١] .

أسرار التوبة ولطائفها

اعلم أن العبد العاقل إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى أمور :

أحدها : أن ينظر إلى أمر الله ونهيه فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة والإقرار على نفسه بالذنب .

الثاني : أن ينظر إلى الوعد والوعيد فيحدث له ذلك خوفاً وخشية تحمله على التوبة .

الثالث : أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها وتقديرها عليه وأنه لو شاء لعصمه منها فيحدث له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمته ورحمته وحلمه وكرمه ، وتوجب له عبودية بهذه الأسماء لا تحصل بدون لوازمها البتة . ويعلم ارتباط الخلق والأمر والوعيد بأسمائه وصفاته وأن ذلك موجب الأسماء والصفات وأثرها في الوجود ، وهذا المشهد يطلعه على رياض موفقة من المعارف والإيمان وأسرار القدر والحكمة يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم .

منها : أن يعرف العبد عزته في قضائه . وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء وأنه لكمال عزته حكَم على العبد وقضى عليه بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء وحال بين العبد وقلبه .

ومن معرفة عزته في قضائه أن يعرف أنه مدبّر مقهور ناصيته بيد غيره ، لا عصمة له إلّا بعصمته ولا توفيق له إلّا بمعونته فهو ذليل حقير في قبضة عزيز حميد ومن شهود عزته في قضائه أن يشهد أن الكمال والحمد والعزة

كلها لله وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم والعيب والظلم والحاجة ، وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره ازداد شهوداً لعزة الله وكماله – وحده – وغناه .

ومنها : أن يعلم بره – سبحانه – في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له ولو شاء لفضحه بين خلقه . ومنها مشاهد حلم الله عزّ و جلّ في إمهال راكب الخطيئة ولو شاء لعاجله بالعقوبة فيحدث له معرفة ربه – سبحانه – باسمه « الحليم » .

ومنها : معرفة فضل الله في مغفرته فإن المغفرة فضل من الله وإلّا فلو أخذك بمحض حقه كان عادلاً محموداً وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك فيوجب له ذلك شكراً ومحبة وإنابةً ومعرفةً باسمه « الغفار » .

ومنها : أن يكمل لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار والافتقار وهي أربعة مراتب : –

المرتبة الأولى :– ذل الحاجة والفقر ، وهذه عامة في جميع الخلق .

المرتبة الثانية : ذل الطاعة والعبودية ، وهو خاص لأهل طاعته .

المرتبة الثالثة : ذل المحبة فالمحب ذليل بالذات وعلى قدر محبته يكون ذُلّه .

المرتبة الرابعة : ذل المعصية والجناية وحقيقة ذلك هو الفقّر ، فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم .

ومنها : أن اسم « الرّزّاق » يقتضي مرزوقاً و « السميع البصير » يقتضي مسموعاً ومُبْصَرَاً ، كذلك أسماء الغفور العفو التواب يقتضي من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه ، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات .

وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله – صلوات الله وسلامه عليه – حيث

يقول : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم »[1] .

ومن أسرارها : ما ورد في الصحيحين من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح »[2] .

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً وأسَرَه عدوُك وحال بينك وبينه وأنت تعلم أن العدوَّ سيسومُه سوء العذاب ويعرضه لأنواع الهلاك وأنت أولى به منه وهو غرسك وتربيتك ثم إنه انفلت من عدوه ووافاك على غير ميعاد فلم يفاجئك إلّا وهو على بابك يتملقك ويترضاك ويمرغ خديه على تراب أعتابك فكيف يكون فرحك به وقد اختصصته لنفسك ورضيته لقربك وآثرته على ما سواه . هذا ولستَ الذي أوجدته وخلقته وأسبغتَ عليه نعمك والله عزّ و جلّ هو الذي أوجد عبده وخلقه وأسبغ عليه نعمته وهو يحب أن يتمها عليه .

وإلى هنا انتهى ما تيسر لنا جمعه وترتيبه والله نسأل أن يكون القبول نصيبه وأن يرزقنا يوم القيامة بره وذخره إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) رواه مسلم (٦٤/١٧) التوبة ، والترمذي (٥٢٣/٩) الدعوات وهذا لفظ مسلم وانظر طرق الحديث في الصحيحة رقم ٩٧٠ .

(٢) رواه مسلم (٦٣/١٧) التوبة واللفظ له ، والبخاري مختصراً (١٠٢/١١) الدعوات .

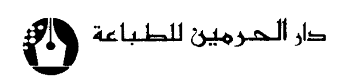
ورواه مطولاً من حديث عبد الله بن مسعود (١٠٢/١١) الدعوات .

١٤ - فهرس المراجع

١ - إحياء علوم الدين ، للغزالي بتحقيق العراقي ط الشعب .
٢ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، لابن القيم ط الحلبي .
٣ - تحفة الأشراف للمزي. عبد الصمد شرف الدين ط الدار القيمة بالهند .
٤ - تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ط دار المعرفة ببيروت .
٥ - تفسير المعوذتين ، لابن القيم ط المطبعة السلفية .
٦ - الترغيب والترهيب للمنذري .
٧ - جامع الأصول ، لابن الأثير بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط . ط دار الفكر .
٨ - جامع العلوم والحكم ، لابن رجب ، ط الحلبي .
٩ - جلاء الأفهام ، لابن القيم ، ط دار عمر بن الخطاب .
١٠ - الجواب الكافي ، لابن القيم .
١١ - رياض الصالحين ، للنووي بتحقيق الألباني ط المكتب الإسلامي .
١٢ - الروح ، لابن القيم ، ط محمد علي صبيح .
١٣ - سنن ابن ماجه ، ط المكتبة العلمية .
١٤ - سنن الدارمي ، ط دار الكتب العلمية .
١٥ - سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني .
١٦ - سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي ، ط دار الكتب العلمية .

١٧ – شرح السنة للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط .
١٨ – صحيح أبي داود ، للألباني ، ط مكتب التربية العربي .
١٩ – صحيح الترمذي ، للألباني ، ط مكتب التربية العربي .
٢٠ – صحيح ابن ماجه ، للألباني ، ط مكتب التربية العربي .
٢١ – صحيح مسلم ، بشرح النووي ، ط المكتبة المصرية .
٢٢ – صحيح النسائي ، للألباني ، ط مكتب التربية العربي .
٢٣ – عارضة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، لابن العربي ، دار الوعي .
٢٤ – عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن القيم ، زكريا علي يوسف .
٢٥ – عون المعبود بشرح سنن أبي داود لشمس الحق أبادي ، ط المكتبة السلفية بالمدنية المنورة .
٢٦ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ، ط السلفية .
٢٧ – مجمع الزوائد ومنبع الفرائد ، لنور الدين الهيثمي ، دار الكتاب العربي .
٢٨ – مدارج السالكين ، لابن القيم ، دار الفكر العربي .
٢٩ – مستدرك الحاكم ومعه تلخيص الذهبي ، دار المعرفة .
٣٠ – مسند أحمد بفهرس الألباني ، ط المكتب الإسلامي .
٣١ – مشكاة المصابيح ، للتبريزي بتحقيق الألباني ، ط المكتب الإسلامي
٣٢ – مفتاح دار السعادة ، لابن القيم ، ط مكتبة السعادة .
٣٣ – موطأ مالك ، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، ط الحلبي .
٣٤ – موارد الظمآن في زوائد ابن حبان ، ط دار الكتب العلمية .
٣٥ – موعظة المؤمنين ، للقاسمي ، ط المكتبة التجارية .
٣٦ – المعجم المفهرس لألفاظ الحديث لجماعة من المستشرقين ، ط دار الدعوة .
٣٧ – الوابل الصيب ، لابن القيم ، ط المطبعة السلفية .

١٥ - فهرس الموضوعات


دار الحرمين للطباعة